

# الباب الحادى والعشرون

## الانهيار السياسى

١٤٩٤ - ١٥٣٤

### الفصل الأول

فرنسا تكشف إيطاليا ١٤٩٤ - ١٤٩٥

نعود بالقارئ إلى الموقف فى إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . لقد نشأت قبل ذلك العام دول المدن بفضل قيام طبقة وسطى من السكان أثرت من اشتغالها بأعمال التجارة والصناعة التى اتسع نطاقها . وكانت هذه المدن قد فقدت استقلالها الذاتى وحريتها لعجز حكوماتها شبه الديمقراطية عن حفظ النظام بسبب التقاتل بين الأسر والنزاع بين الطبقات . وبقيت اقتصادياتها محلية فى تكوينها حتى فى الوقت الذى وصلت فيه أساطيلها وغلاتها إلى الثغور النائية . وكان بعضها ينافس البعض الآخر أشد مما ينافس الدول الأجنبية ، ولم تضم فى يوم ما صفوفها لتقاوم مجتمعة توسع الفرنسيين ، والألمان ، والأسبان التجارى فى الأقاليم التى كانت تسيطر عليها المدن الإيطالية من قبل . ومع أن إيطاليا هى التى أنجبت الرجل الذى أعاد كشف أمريكا ، فإن أسبانيا هى التى أمدته بالمال ؛ واقتفت التجارة خطاه ، وصحب الذهب عودته ، وازدهرت الأمم الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى ، ولم يعد البحر المتوسط الموطن المحب لحياة الرجل الأبيض الاقتصادية ؛ وأخذت البرتغال تسير السفن إلى

الهند والصين حول قارة إفريقيا ، وتتجنب العراقيل التي توضع في طريقها في بلاد الشرق الأدنى والأوسط ؛ وحتى الألمان أخذوا يسبرون سفنهم من مصاب نهر الرين بدل أن ينقلوا متاجرهم فوق جبال الألب في إيطاليا . وأخذت الأقطار التي ظلت قرناً من الزمان تبتاع منسوجات إيطاليا الصوفية تنسج هي أصوافها ، كما أخذت الأمم التي تؤدي أرباح الأموال إلى المصارف الإيطالية تنمي هي مواردها المالية ، وأضحيت الزكاة ، والمرتببات الأولى للمناصب الكنسية التي من حق الكنيسة ، وبنسات بطرس (\*) وأثمان صكوك الغفران ، ونقود الحجاج ، أصبحت هذه أهم ما تؤدبه إلى إيطاليا البلدان الأوربية الواقعة وراء الألب ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى حول ثلث أوربا مجرى هذا المال ؛ ولهذا حدث في ذلك الجيل الذي رفعت فيه الثروة المخزنة في إيطاليا مدنها إلى ذروة مجدها وعلا فيها شأن فنونها ، نقول إنه في هذا الجيل نفسه قضى فيه على مركز إيطاليا الاقتصادي ونختم في ذلك الوقت عينه على مصيرها السياسي ، فبينما كانت هي منقسمة إلى نظم اقتصادية متعادلة ودول سياسية متخاربة ، كان تطور الاقتصاد القومي في غيرها من المجتمعات الأوربية برغم هذه المجتمعات على الانتقال من عهد الإمارات الإقطاعية إلى عهد الدول الملكية ، ويقدم المال اللازم لهذا الانتقال . ففي ذلك الوقت توحدت فرنسا تحت حكم لويس الحادي عشر ، وأخضعت باروناتها فجعلتهم حاشية للملوك ، وجعلت من سكان مدنها رجالاً عامرة قلوبهم بالروح الوطنية . واتحدت أسبانيا بزواج فرديناند صاحب أرغونة من إزبلا ملكة قشتالة ، وفتحت غرناطة ، ومكنت بدماء أهلها وحدتها الدينية . كذلك توحدت إنجلترا تحت حكم هنري السابع ،

(\*) ضريبة قديمة مقدارها بنس كان يؤديها كل صاحب بيت في إنجلترا إلى الكرسي البابوي ثم أصبحت بعد عام ١٨٦٠ ضريبة اختيارية يؤديها أتباع المذهب الكاثوليكي الروماني إلى هذا الكرسي . ( المترجم )

ووع أن ألمانيا لم تكن أقل تشبهاً وانقساماً من إيطاليا ، فإنها كانت تعترف بالسيادة للملك واحد وإمبراطور ، وتمده أحياناً بالمال والجند ليحارب بهما هذه الدولة الإيطالية أو تلك . ثم إن إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا أنشأت جيوشاً قومية من أهلها ، وأمدتها أشرافها بالفرسان والقادة . أما المدن الإيطالية فلم تكن لها إلا قوات صغيرة من الجنود المرتزقة لا هم لها إلا السلب والنهب ، يتولى قيادتها زعماء مغامرون أبغض الأشياء إليهم أن يصابوا بجروح قاتلة . وكانت معركة واحدة كافية لأن تكشف لأوروبا ضعف إيطاليا وعجزها عن الدفاع عن نفسها .

وكان نصف بيوت المالكين في أوروبا يزخر وقتئذ بالدسائس الدبلوماسية يريد كل واحد منها أن يحرز قصب السبق في الاستيلاء على الغنيمة . ونادت فرنسا بأنها صاحبة الحق الأول ، لأسباب كثيرة ، منها أن جيان جاليدسو نسكونتي قد زوج ابنته فالنتينا ( ١٣٨٧ ) من لويس أول دوق لأورليان ، وكان ثمن هذه الصلة الطيبة المريحة بأسرة مالكة هو اعترافه بحقها وبحق الذكور من أبنائها في أن يرثوا دوقية ميلان إذا لم يكن له وريث ذكر من صلبه ؛ وتم ذلك فعلاً حين توفي فيليبو ماريا فسكونتي ( ١٤٤٧ ) . فاستولى صهره فرانتشيسكو اسفورديسا حينئذ على ميلان بدعوى أنها من حق زوجته بيانكا ابنة فيليبو ماريا ؛ ولكن شارل دوق أورليان طالب بعرش ميلان بوصفه ابن فالنتينا ، ونادى بأن آل اسفورديسا مغتصبون ، وأعلن تصميمه على الاستيلاء على الإمارة الإيطالية إذا ما حانت له الفرصة .

وفضلاً عن هذا فإن شارل دوق أنجو كان قد حصل كما يقول الفرنسيون على مملكة ناپلي من البابا إربان الرابع ( ١٢٦٦ ) ، مكافأة له على حماية البابوية من ملوك آل هوهنشتاوفن ؛ ثم أوصت جوانا Joanna الثانية بملكة ناپلي بهذه المملكة إلى رينيه René دوق أنجو ( ١٤٣٥ ) ؛ وكان ألفنسو صاحب أرغونة قد طالب بها بدعوى أن جوانا قد تبنته إلى وقت ما ،

أقام بالقوة بيت أرغونة على عرش نابلي : وحاول وينيه أن ينتزع المملكة منه ولكنه لم يفلح ؛ وانتقل حقه القانوني فيها بعد موته إلى لويس التاسع ملك فرنسا ؛ وفي عام ١٤٨٢ دعا سكستس الرابع - وكان على خلاف مع نابلي - لويس للاستيلاء على ميلان وقال « إنها ملك له » . وحدث في ذلك الوقت أن شن حلف من الدول الإيطالية الحرب على البندقية فلجأت في يأسها إلى لويس تطلب إليه أن يهاجم نابلي أو ميلان ، وقالت إنها تفضل أن يهاجم الاثنتين : وكان لويس وقتئذ مشغولاً بتوحيد فرنسا ، ولكن ابنه شارل الثامن ورث حقه في نابلي واستمع إلى المنفيين من أهلها وإلى أنصار أسرة أنجو في بلاطه ، وأدرك أن تاج نابلي كان منضماً إلى تاج صقلية ، وأن هذا مرتبط بتاج بيت المقدس . لهذا خطرت بباله تلك الفكرة الكبيرة ، أو لعل أحداً أوعز إليه بها ، وهي الاستيلاء على نابلي وصقاية ، على أن يتوج بعدئذ ملكاً على بيت المقدس . ثم يقود حملة صليبية لقتال الأتراك . وحدث في عام ١٤٨٩ أن قام النزاع بين إنوسنت الثامن وبين نابلي ، فعرض إنوسنت المملكة على شارل إذا قدم للاستيلاء عليها . لكن الإسكندر الثالث ( ١٤٩٤ ) حذر الملك من عبور الألب وإلا كان نصيبه الحرمان ؛ غير أن الكردينال جوليانو دلا روفيري عدو الإسكندر - الذي حارب فيها بعد حين أصبح هو البابا يوليوس الثاني ليظرد الفرنسيين من إيطاليا - قدم إلى شارل في ليون Lyons وحرضه على غزو إيطاليا وخلع الإسكندر . ووجه سفرولاً دعوة أخرى إلى شارل يرجو من ورائها أن يخلع هذا الملك بـرو ده إلميديتشي عن عرش فلورنس والإسكندر عن عرش البابوية في رومة ، وقبل كثير من أهل فلورنس أن يتولى الراهب زعامتهم . وأخيراً عرض لدوفيكو صاحب ميلان على شارل أن يسمع له باختراق أملاك ميلان إذا ما اعترم أن يوجه حملة إلى نابلي ، وكان الباعث على هذا خوفاً من أن تهاجمه نابلي نفسها .

ووجد شارل أن نصف إيطاليا يشجعه فأخذ يستعد لغزو نابلي . وأراد أن يحمي جناحيه أثناء الغزو فنزل عن أرتوا Artois وفرانش كمتيه Francho Compte إلى مكسميليان إمبراطور الدولة الرومانية ، كما نزل عن رسيون Rousillon وسرداني Cerdagen إلى فرديناند ملك أسبانيا ، ونفح هنري السابع بمبلغ كبير من المال نظير تخليه عن المطالبة بمقاطعة بريطانيا الفرنسية . وفي شهر مارس من عام ١٤٩٤ حشد جيشه في ليون ، وكان مؤلفاً من ١٨٠٠٠ من الفرسان ، و ٢٢٠٠٠ من المشاة ، وسير أسطولا ليضمن ولاء جنوى لفرنسا ، فاسترد في الثامن من سبتمبر بلدة رابلو Rapallo من قوة نابليه كانت قد نزلت بها ؛ وروعت أنباء المذبحة الرهيبة التي أعقبت هذه المعركة الأولى لإيطاليا كلها التي لم تتعود إلا المذابح المعقولة . وفي ذلك الشهر عينه عبر شارل وجيشه جبال الألب ووقف عند أستى Asti . وسار لدوفايكو صاحب ميلان ، وإركولى صاحب فيرارا لمقابلته . وأقرضه لدوفايكو مالا ؛ وعاقبت إصابة شارل بالجدرى تنفيذ خطة الغزو الموضوع ، فلما شنى قاد جيشه مخترقاً أراضي ميلان إلى تسكانيا ؛ وكان في وسع القلاع المقامة على حدود فلورنس أن تقاومه ، ولكن بيرو ده ميديتشي جاء بنفسه ليسلمها إليه ومعها بيزا وليفورنو Livorno . وفي السابع عشر من نوفمبر اجتاز شارل ونصف جيشه مدينة فلورنس ؛ وأعجبت جماهير الشعب بمنظر الفرسان الذي لم تشاهد مثله من قبل ، وساءهم ما ارتكبه الجند من السرقات الصغيرة ، ولكنهم ذهب عنهم الروع حين رأوهم يمتنعون عن السلب والنهب . وفي شهر ديسمبر تقدم شارل نحو رومة .

لقد سبق أن نظرنا إلى لقاء الملك والبابا من وجهة نظر الإسكندر ، وبقي أن نقول إن شارل سلك مسلكاً معتدلاً ، فلم يطلب إلا أن يسمح لجيشه بحرية المرور في لاتيوم ، وأن يتولى هو الوصاية على الأمير جم التركي

السجين البابوي ( وكان يمكن استخدامه مطالباً بالسلطنة وخليقة إذا ما سير  
حملة ضد الأتراك ) ، وأن يصحبه سيزارى بورچيا ليكون رهينة لديه .  
ووافق الإسكندر على هذه الشروط ، وزحف الجيش نحو الجنوب ( ٢٥ )  
يناير سنة ١٤٩٥ ) ، لكن بورچيا لم يلبث أن فر ، وكان فى وسع الإسكندر  
بعد فراره أن يعدل خططه الدبلوماسية .

وفى الثامن والعشرين من فبراير دخل شارل ناپلى دخول الظافرين  
دون أن يلقى مقاومة . وسار فى المدينة ومن فوقه مظلة من القماش الموشى  
بخيوط الذهب يحملها أربعة من أعيان ناپلى . ويتلقى تحيات الجماهير .  
وأظهر رضاه وتقديره بأن خفض الضرائب وعفا عن قاوموا مجيئه ؛ وأقر  
نظام الاسترقاق بناء على طلب الأعيان الذين كانوا يحكمون الأرض  
الواقعة وراء المدينة . وظن أن الأمر قد استتب له فأصبح آمناً مطمئناً ،  
فتوانى وعمد إلى الراحة والاستمتاع بجو البلدة ومناظرها الجميلة ، وكتب  
بلهجة حماسية إلى دوق بوربون يصف الحقائق التى كان يعيش فى وسطها ،  
والتي لا ينقصها إلا حواء كى تصبح جنة النعيم ؛ وأبدى دهشته مما فى المدينة  
عن عمائر ، وتماثيل ، وصور زيتية ، واعتزم أن يأخذ معه إلى فرنسه  
طائفة ممتازة من الفنانين الإيطاليين ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت بعث إلى  
فرنسا بسفينة محملة بالتحف الفنية المسروقة من المدينة . وسحرته ناپلى  
بجمالها فأنسته كل شىء عن بيت المقدس وعن حربيه الصليبية .

وبينا هو يلهو ويضيع الوقت سدى فى ناپلى ، وبينما كان جيشه يستمتع  
بنساء الشوارع والمواخير ، فيصاب « بالمرض الفرنسى » أو ينشر هذا الداء  
الوبيل بين الأهلين ، كانت المتاعب تتجمع من خلفه . ذلك أن أعيان  
ناپلى حرموا فى كثير من الحالات من ضياعهم التى انتزعت منهم لترد إلى  
ملاكها من أسرة أنچو أو للوفاء بما على شارل من ديون لخدمه ، وذلك  
بدلاً من أن يكافأ هؤلاء الأعيان على ما قدموا من معونة لخلع ملكهم

السابق ؛ يضاف إلى هذا أن جميع مناصب الدولة قد أعطيت للفرنسيين ، ولم يكن شيء يستطيع الحصول عليه منهم إلا إذا قدم لهم من الرشاوى ما أغضب الأهلين لتجاوزه القدر الذي اعتادوا تقديمه . ثم إن جيش الاحتلال أضاف الإهانة إلى الأذى بما كان يظهره من احتقاره للشعب الإيطالي ، فلم تمض إلا أشهر قليلة حتى خسر الفرنسيون ما قوبلوا به من ترحيب واستبدلوا به كرها يترقبهم الدوائر ، ويتربص الفرصة التي تتاح له لطرد الغزاة .

فلما كان اليوم الحادى والثلاثون من شهر مارس انضم الإسكندر الرجل المرن الذى لا يكاد يتلقى الطعنة حتى يفيق منها ، ولدوفيكو التائب النادم على ما فعل ، وفرديناند الغضوب ، ومكسميليان الغيور الحسود ، ومجلس شيوخ البندقية الحذر ، انضم هؤلاء فى حلف للدفاع المشترك عن إيطاليا . ومضى شهر على الملك شارل وهو يجوس خلال نابلى يمسك الصوبلجان بإحدى يديه ويمسك بيده الأخرى كرة - نظنها تمثل الكرة الأرضية - قبل أن يدرك أن الحلف الجديد يعد جيشاً لقتاله . وفى الحادى والعشرين من مايو عهد أمر نابلى إلى ابن عمه كونت مونپنسييه Montpensier وزحف على رأس نصف جيشه نحو الشمال ، فلما وصل ذلك الجيش البالغ عدده عشرة آلاف مقاتل إلى فورنوفو Fornovo القائمة على نهر تارو من أملاك پارما وجد أن جيشاً عدته أربعون ألف رجل بقيادة جيان فرانتشيسكو جندساجا مركيز مانتوا يسد عليه الطريق . وفى الخامس من يوليه سنة ١٤٩٥ امتحنت قوة الجيوش الإيطالية والفرنسية ونخططهما العسكرية لأول مرة . وأساء جندساجا إدارة المعركة وإن كان قد حارب ببسالة . فلم يشترك فى القتال إلا نصف جنده ؛ لم يكن الإيطاليون مستعدين من الناحية العقلية لقتال محاربين لا يرحمون من يقع فى أيديهم ، فولى الكثيرون منهم الأدبار ؛ وضرب فارسن بايار وهو صبي فى العشرين من عمره أروع المثل لرجالهم

بشجاعته ومجازفته في القتال ، وحتى الملك نفسه قاتل قتال الأبطال ، وكانت المعركة غير حاسمة ادعى فيها كلا الطرفين أنه هو الظافر ، وخسر الفرنسيون قافلة مؤنهم ولكنهم ظلوا المسيطرين على الميدان ، ولما جن الليل تقدموا نحو أستى دون أن يلقوا مقاومة ، وفيها كان ينتظرهم لويس دوق أورليان الثالث ومعه المدد ، وفي شهر أكتوبر عاد شارل إلى فرنسا بعد أن خسر الكثير من سمعته ولكنه لم يصب بأذى شديد .

وكانت النتائج الإقليمية لهذه المعركة تافهة : أهمها أن جندسالو Gonzalo « القائد العظيم » طرد الفرنسيين من ناپلي وكلبريا ، وأعاد أسيرة أرغونة إلى عرشها في شخص فيديريجو Federigo الثالث ( ١٤٩٦ ) . أما النتائج البعيدة لهذا الغزو فقد تجاوزت كل حد : فقد أثبت تفوق الجيش القومي على الجنود المرتزقة المأجورة ، ويستثنى من هذا الحكم العسام الجنود السويسريون المرتزقون وإن يكن هذا الاستثناء مؤقتاً قصير الأجل . ذلك أن أولئك الجنود السويسريون المسلحين بالحرايب البالغ طولها ثمانى عشرة قدماً والمنظمين في فرق متراصة متلاصقة كانت سداً منيعاً شائكاً أمام الفرسان الزاحنين . ولهذا قدر لأولئك الجنود أن يكسبوا كثيراً من الوقائع . ولكن هذه القوة الهائلة التي أعادت إلى الذاكرة صفوف المقدونيين المتراصة في حروب الإسكندر الأكبر لم تلبث أن أضحت عديمة الجدوى أمام تقدم المدفعية . ولعل هذه الحرب هي التي حدث فيها لأول مرة أن وضعت المدافع على العربات فأمكن بذلك توجيهها بسهولة في الاتجاهات المختلفة وتغيير مدى مرماها . وكانت هذه العربات تجرها الخيول لا الثيران ( كما كانت العادة في إيطاليا حتى ذلك الوقت ) . وقد جاء الفرنسيون إلى الميدان - كما يقول جوتشياردينى - بعدد كبير من « مدافع الميدان والمدافع المدمرة التي لم تر إيطاليا مثيلاً لها من قبل » (٣) . وقاتل الفرسان الفرنسيون أحفاد أبطال فرواسار ، قتال الأبطال في فورنوفو ، ولكن الفرسان أيضاً ما لبثوا أن خضعوا للمدافع ،

وهكذا تبدلت الحال عما كانت في العصور الوسطى ؛ فقد كانت فنون الدفاع في تلك الأيام متقدمة على وسائل الهجوم ، وكان هذا سبباً في عدم تشجيع الحروب . أما الآن فقد أخذت أساليب الهجوم تتقدم على أساليب الدفاع ، وأصبحت الحرب من ثم أكثر سفكاً للدماء . وثمة نقطة أخرى عظيمة الخطر : تلك هي أن حروب إيطاليا قلما كانت حتى ذلك الوقت تشغل أهلها أنفسهم ، وكانت تلحق الأذى بحقولهم أكثر مما تلحقه بأرواحهم ؛ أما الآن فقد قدر لهم أن يروا إيطاليا بكلها يحل بها الدمار وتخضب أرضها بالدماء ؛ وعرف السويسريون في تلك الحرب التي دامت طوال العام ما تنطوي عليه سهول لمباردى من خصب ونماء ، وطالما غزوها بعدئذ المرة بعد المرة . وأدرك الفرنسيون أن إيطاليا منقسمة ومشتتة وأنها تنتظر المغير الفاتح . نعم إن شارل الثامن قد ألقى بنفسه في أحضان العاشقات ، وكاد يمتنع عن التفكير في نابلي ، ولكن ابن عمه ووريثه كان أصاب منه عوداً ، وما لبث لويس الثاني عشر أن عاود الكرة .

## الفضل الثاني

تجدد الهجوم : ١٤٩٦ - ١٥٠٥

وأضاف مكسمليان « ملك الرومان » - أي الألمان - فصلاً آخر إلى هذه المسرحية ، فلقد كان يوئله ويقض مضجعه أن يفكر في أن مدونه الكبرى ، أي فرنسا ، تعظم وتقوى ، وتطوقه باستيلائها على إيطاليا . وكانت قد ترامت إليه أخبار غنى هذه البلاد وجمالها وضعفها ، ولم تكن قد أصبحت بعد دولة ، بل كانت شبه جزيرة . وكانت له هو أيضاً ادعاءات ومطالب في إيطاليا ؛ فقد كانت مدن لمباردى لا تزال من الوجهة القانونية إقطاعيات تابعة للإمبراطورية ، وكان من حقه قانوناً بوصفه رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن يعطيها لمن يشاء ؛ ألم يرشده الدوق فيكو بالفلورينات وبييانكا أخرى لكي يمنحه دوقية ميلان ؟ يضاف إلى هذا أن كثيرين من الإيطاليين دعوه إلى المجيء : فلدوق فيكو والبندقية قد طلبا إليه ( ١٤٩٦ ) أن يدخل إيطاليا ويساعدهما على صد هجوم فرنسي آخر يهدد البلاد ، ولبي مكسمليان الدعوة ومعه عدد قليل من الجنود ، واستطاعت البندقية بدهائها أن تقنعه بالهجوم على ليفورنو ، فرضة فلورنس الأخيرة على البحر المتوسط ، وبذلك يضعف هذه المدينة التي لا تزال متحاربة مع فرنسا ومنافسة على الدوام للبندقية ، وأخفقت حملة مكسمليان لأنها كانت يعوزها التنسيق والتأييد الكافي ، فعاد إلى ألمانيا دون أن يستفيد من هذا الدرس إلا الشيء القليل ( ديسمبر سنة ١٤٩٦ ) .

وفي عام ١٤٩٨ أصبح دوق أورليان هو لويس الثاني عشر . وإذا كان هو حفيد فالنتينا فسكونتي فإنه لم يندس قط ما كانت أسرته تدعيه من

حقوق لها في ميلان ؛ وإذ كان هو ابن عم شارل الثامن ، فقد ورث مطالب آل أنجو في نابلي . ومن أجل هذا فإنه في يوم تتويجه اتخذ فيها اتخذ من ألقاب : دوق ميلان ، وملك نابلي وصقلية ، وإمبراطور بيت المقدس . وأراد أن يمهد السبيل لنفسه فجدد معاهدة سلام مع إنجلترا وعقد معاهدة مثلها مع أسبانيا ؛ ثم أغرى البندقية فوقعت معه شروط حلف « للاشتراك في حرب ضد دوق ميلان لدوڤيڤكو اسفورديسا وضد أي إنسان آخر عدا الحبر الأكبر بابا رومة لكي يرد إلى صاحب الجلالة الملك المسيحي . . . دوقية ميلان ملكه الشرعي القديم » ، ووعدها في نظير ذلك بكريمونا ، والأراضي الواقعة شرق أدا . ثم عقد بعد شهر من ذلك التاريخ ( مارس ١٤٩٩ ) اتفاقاً مع المقاطعات السويسرية لكي تمده بالجنود نظير إعانة مالية قدرها عشرون ألف فلورين . وفي شهر مايو استدرج الإسكندر إلى مخالفة بأن أعطى سيزاري بورجيا زوجة فرنسية يجرى في عروقها الدم الملكي ، ودوقية فالنتينو Valentino وقطع له عهداً بأن يساعده على استرداد الولايات البابوية . وشعر لدوڤيڤكو بالضعف أمام هذه الأحلاف ؛ ففر إلى النمسا ، ولم تمض إلا ثلاثة أسابيع حتى اختفت دوقيته بعد أن اقتسمتها البندقية وفرنسا ، وفي السادس من شهر أكتوبر سنة ١٤٩٩ دخل لويس ميلان ظافراً ورحبت به إيطاليا كلها تقريباً عدا نابلي .

والواقع أن إيطاليا بأجمعها عدا البندقية ونابلي أضحت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا أو نفوذها ؛ فقد أسرعت مانتوا ، وفيرارا ، وبولونيا وأعلنت خضوعها واستسلامها ؛ وتمسكت فلورنس بحلفها مع فرنسا لأنها رأت فيه الوسيلة الوحيدة لحمايتها من سيزاري بورجيا . وحتى فرديناند ملك أسبانيا ، رغم ما بينه وبين الأسرة الأرجونية من وشائج القرى ، عقد في غرناطة ( ١١ نوفمبر سنة ١٥٠٠ ) ميثاقاً سرياً مع ممثلي لويس يتضمن الاشتراك معه في فتح جميع إيطاليا الواقعة جنوب الولايات البابوية .

وعاونهما الإسكندر السادس الذي كان بحاجة إلى معونة فرنسا لاسترداد هذه الولايات ، بأن أصدر مرسوماً بابوياً خلع به فيديريجو الثالث ملك نابلي وأيد تقسيم مملكته بين فرنسا وأسبانيا .

وفي شهر يولييه عام ١٥٠١ زحف جيش فرنسي بقيادة استيورت دوبني Stuart Daubigny الاسكتلندي ، وسيزاري بورچيا ، وفرانثيسكو دي سان سقرينو الذي غدر بلدو فيكو بعد أن كان من المقربين إليه ، زحف هذا الجيش مخترقاً إيطاليا إلى كاپوا واستولى عليها ونهبها ، وتقدم صوب نابلي ، ورأى فيديريجو أن أنصاره جميعاً قد انفضوا من حوله فسلم المدينة إلى الفرنسيين نظير قبوله لاجئاً آمناً في فرنسا ومعاشاً سنوياً . وفي هذه الأثناء استولى القائد الأكبر جندسالو القرطبي Gonzalo de Cordoba على كالبريا وأبوليا باسم فرديناند وإزبلا . وأرسل فرانتى بن فيديريجو سجيناً إلى أسبانيا بناء على طلب فرديناند ، وذلك بعد أن سلم تارنتو Taranto ووعده جندسالو بأنه سبطلق سراحه . ولما أن اتصل الجيش الأسباني بالجيش الفرنسي على الحدود الواقعة بين أبوليا وأبروتسي قام النزاع بينهما على الحد الفاصل بين ما استولى عليه كل منهما ؛ وقامت الحرب بين أسبانيا وفرنسا على تقسيم الأسلاب . واغتبط بذلك الإسكندر أيما اغتباط ( يولييه سنة ١٥٠٢ ) ، وقال البابا لسفير البندقية : « لو أن الله لم ير الخلاف بين فرنسا وأسبانيا ، لما عرفنا الآن أين نكون ؟ » .

وابتسم الحظ للفرنسيين في هذه الحرب الجديدة إلى حين ، فقد اجتاحت قوات دوبني جنوبي إيطاليا كله تقريباً : وحبس جندسالو جنوده في مدينة بارليتتا الحصينة . وهنا وقعت حادثة من حوادث العصور الوسطى الطريفة ألفت شيئاً من الهجة على هذه الحرب المشثومة ( ١٣ فبراير سنة ١٥٠٣ ) . ذلك أن ضابطاً فرنسياً وصف الإيطاليين بأنهم شعب مخنث جبان دنيء ، فثار قائد إحدى الفرق الإيطالية في الجيش الأسباني لهذه الإهانة

وطلب أن يقاتل ثلاثة عشر من الفرنسيين مثلهم من الإيطاليين . واتفق على هذا ، وأرجى القتال ، ووقف الجيشان المتحاربان يشاهدان النزال ، بينما كان المحاربون الستة والعشرون يقتتلون حتى أئخن الفرنسيون الثلاثة عشر بالجراح التي أعجزتهم عن مواصلة البراز ووقعوا أسرى في أيدي الإيطاليين ، وأخذت جنديساو الشهامة الأسبانية التي لا تقل في بعض الأحيان عن القوة الأسبانية ، فافتدى الأسرى من ماله الخاص وردهم إلى جيشهم (٦) .

وأعادت هذه الحادثة الروح المعنوية لجنود القائد الأكبر ، فخرجوا من بارليتا ، وهزموا المحاصرين وبددوا مثلهم ، ثم هزموا الفرنسيين مرة أخرى عند تشيرنيولو Cerignolo . وفي السادس عشر من شهر مايو سنة ١٥٠٣ دخل جندسالو نابلي دون أن يلقى مقاومة ، ورحب به أهلها ، وهم الذين يستطيع كل منتصر أن يعتمد دائماً على ترحيبهم ، وسير لويس الثاني عشر جيشاً آخر لقتال جندسالو ، فالتقى ذلك القائد به على شاطئ كارجليانو ، وأوقع به هزيمة منكرة ( ٢٩ ديسمبر سنة ١٥٠٣ ) ؛ وغرق بيروده ميديتشي الذي كان يفر مع الفرنسيين في أثناء الفوضى التي أعقبت هذه الهزيمة ؛ ثم ضرب جندسالو الحصار على جيتا Gaeta آخر معاقل الفرنسيين في جنوبي إيطاليا ؛ وعرض على من فيها شروطاً سخية سرعان ما قبلوها ( أول يناير سنة ١٥٠٤ ) ؛ وأظهر من الوفاء في المحافظة على هذه الشروط بعد أن جرد الفرنسيين من سلاحهم ما جعلهم يقبونه بالقائد الظريف لأنه خرج عن جميع السوابق أشد الخروج (٧) . وعقد لويس مع الأسبان معاهدة بلوا Blois ( ١٥٠٥ ) ، التي أنقذ فيها شرفه ظاهرياً بأن نزل عن حقوقه في نابلي إلى قريبته جيرمين ده فوا Germaine de Foix التي تزوجت بعدئذ فرديناند الأرملة وجاءت له بنابلي باثنتي لها ، وبذلك أضيف تاج نابلي وتاج صقلية إلى تيجان فرديناند الهم ، وبقيت بعدئذ مملكة نابلي تابعة لأسبانيا حتى عام ١٧٠٧ .

## الفصل الثالث

حلف كمبريه : ١٥٠٨ - ١٥١٦

أضحى نصف إيطاليا الآن في أيدي الأجانب : فقد كان جزؤها الجنوبي ملكاً لأسبانيا ، وجزؤها الشمالي الغربي الممتد من جنوى مجتازاً ميلان إلى حدود كريمونا في يدي فرنسا ، وكانت الإمارات الصغرى خاضعة لنفوذ فرنسا ، ولم يكن فيها بلد مستقل استقلالاً نسبياً سوى البندقية والولايات البابوية ، ولطالما اشتبكتنا في حرب متقطعة للاستيلاء على مدن رومانيا . ذلك أن البندقية كانت تتوق إلى المزيد من الأسواق وإلى موارد الثروة في شبه الجزيرة لتعوض ما استولى عليه الترك من أسواقها ومواردها أو هددته طرق الملاحة البحرية إلى الهند عن طريق المحيط الأطلنطي . ولهذا اغتنمت فرصة موت الإسكندر ومرض سيزارى بورجيا للاستيلاء على فائزنا ، ورافنا ، وريمينى ؛ وأخذ يوليوس الثاني يضع الخطط لاستعادتها لنفسه ؛ فأقنع لويس ومكسمليان في عام ١٥٠٤ بأن يضعاً حداً لنزاعهما الذي يخالف تعاليم الدين المسيحي ؛ وأن ينضما إليه في مهاجمة البندقية ، وأن يفتسما فيما بينهما أملاكها في شبه الجزيرة (٨) . ولم يجد مكسمليان في نفسه ما يمنعه من قبول هذا العرض ، لكن خزائنه كانت خاوية ، ولم تحقق هذه الموارد نتيجة ما . غير أن الفكرة ظلت تراود يوليوس وظل هو يحاول إخراجها إلى حيز الوجود :

ففي العاشر من ديسمبر دبرت مؤامرة كبرى في كمبريه ضد البندقية ، انضم إليها الإمبراطور مكسمليان لأن البندقية كانت قد انتزعت جوريتسا Goriza ، وتريست ، وبردينوني ، وفيومي من سيطرة الإمبراطور ، وتجاهلت حقوقه الإمبراطورية في فيرونا وبدوا ؛ وأبت عليه وعلى جيشه

الصغير حربية المرور إلى رومة لتحقيق الهدف الذي طالما تمناه وهو أن يتوجه البابا إمبراطوراً . وانضم لويس الثاني عشر إلى هذا الحلف لأن النزاع شجر بين فرنسا والبندقية حول اقتسام شمالي إيطاليا . وانضم إليه كذلك فرديناند ملك أسبانيا لأن البندقية أصرت على الاحتفاظ برنديزي ، وأترانتو Otranto وغيرهما من ثغور أبوليا التي ظلت عدة قرون جزءاً من مملكة نابلي ، ولكن البندقية استولت عليها أثناء المتاعب التي لاقتها البندقية في عام ١٤٩٥ . وانضم يوليوس للحلف ( ١٥٠٩ ) لأن البندقية لم تكثف برفض الجلاء عن رومانيا ، بل إنها فضلاً عن ذلك لم تتردد في الجهر برغبتها في الاستيلاء على فيرارا - التي تقر بأنها إقطاعية بابوية . وكانت الخطة التي وضعتها الدول الأوروبية وقتئذ هي أن تستولى فيما بينها على جميع أملاك البندقية في أرض إيطاليا ، فتسترد أسبانيا ما كان لها من المدن على شاطئ البحر الأدرياتي ، ويسترد البابا إقليم رومانيا ، ويحصل مكسميليان على يدوا ، وفيتشندسا وتريفيزو ، وفريولي ، وفيررنا ، ويستولى لويس على بيرجامو وبريشيا ، وكريما ، وكريمونا ، ووادي نهر أدا . ولو قدر النجاح لهذه الخطة لانمحت إيطاليا من الوجود ، ولوصلت فرنسا وألمانيا إلى نهر الرو ، وكادت أسبانيا تصل إلى التiber ، ولأحاطت أملاك الأجانب بالولايات البابوية وضيقت عليها الحناق والحطمت البندقية التي كانت وقتئذ خط الدفاع ضد زحف الأتراك . ولم تتقدم دولة إيطالية لمعونة البندقية في هذه الأزمة الطاحنة ، ذلك أنها كانت قد أغضبتها كلها تقريباً بجشعها ، حتى أن فيرارا نفسها التي كانت ترتاب فيها بحق خذلتها وانضمت إلى الحلف ، وعرض جنديسالدو النبيل ، الذي أقاله فرديناند من منصبه بغلظة وجفاء ، خدماته على البندقية ليكون قائداً لجيوشها ، ولكن مجلس شيونخها لم يجرؤ على قبول هذا العرض ، لأن أمله الوحيد في البقاء هو أن يفصل من الحلف أعضائه واحداً بعد واحد .

ولم تكن البندقية تستحق العطف وقتئذ إلا لأنها وقفت بمفردها أمام قوات ضخمة لا قبل لها بها ، ولأن أغنياءها الأوفياء وفقراءها المجندين كافحوا جنباً إلى جنب بإصرار وعزم لا يكاد يتصور ، فانتصروا في الميدان نصراً كلفهم ما لا يطيعون . وعرض مجلس الشيوخ أن يرد فائزاً وريمبى للبابوية ، ولكن يوليوس الغاضب الثائر رد على هذا العرض بقرار الحرمان وأرسل جنوده ليستولوا من جديد على مدن إقليم رومانيا ، بينما كان زحف الفرنسيين يرغم البندقية على تركيز قواتها في لمباردى . وهزم الفرنسيون البنادقة عند أنيادلوف في معركة من أشد المعارك هولاً وأكثرها إراقة للدماء في أيام النهضة ( ١٤ مانوسنة ١٥٠٩ ) ، قتل فيها ستة آلاف رجل في يوم واحد . واستدعى مجلس السيادة في ساعة محنته ويأسه بقية جنوده إلى البندقية وتركوا الفرنسيين يحتلون جميع أراضي لمباردى ، وجلوا عن أبوليا ورومانيا ، واعترفت فيرونا وفيتشندسا ، وبدوا بأنها لم يعد في وسعها أن تحمها ، وأطلقت لها كامل حريتها في أن تسلم للإمبراطور أو تقاومه حسبما تختار . وانقض مكسمليان بأكبر جيش شهدته تلك البلاد حتى ذلك الوقت - فقبله كانت عدته نحو ٣٦,٠٠٠ مقاتل - وضرب الحصار على بدوا . وسبب الفلاحون المحيطون بالمدينة لجيش الإمبراطور أكثر ما يستطيعون من المتاعب ، وحارب أهل بدوا نفسها ببسالة تشهد بصلاح الحكم الذي كانوا يستمتعون به تحت راية البندقية . ونفذ صبر مكسمليان ، وكان على الدوام شديد الحاجة إلى المال ، فغادر الميدان وهو غاضب مشمئز إلى التيرول ، وأصدر يوليوس أمراً فجاءة إلى جنوده أن ينسحبوا من الحصار ، وعادت بدوا وفياتشندسا مختارتين إلى سيطرة البندقية ، وسرح لويس الثاني عشر جيشه بعد أن حصل على نصيبه من الأسلاب .

وكان يوليوس قد أدرك قبل ذلك الوقت أن انتصار الحلف انتصاراً كاملاً إذا تم كان هزيمة للبابوية ، لأنه يترك البابوات تحت رحمة دولتين

من دول الشمال ، وبدأت حركة الإصلاح الديني فيهما تفصح عن نفسها .  
ولهذا فإنه عندما عرضت عليه البندقية أن تجيبه إلى كل ما يطلب « قبل  
ما عرضته عليه وكان قد أقسم أنه لن يقبل » ( ١٥١٠ ) . وبعد أن استرد  
كل ما يري أنه ملك حق مشروع للكنيسة ، أصبح حرّاً في أن يوجه غضبه  
نحو الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يسيطرون على لمباردي وتسكانيا ، فكانوا  
بذلك جيراناً للولايات البابوية غير مرغوب فيهم . وأقسم وهو في ميرندولا  
ألا يخلق لحيته حتى يطرد الفرنسيين من إيطاليا . وهكذا طالت اللحية الفخمة  
الخليلة التي تظهر في صورة رفائيل . ونادى البابا وقتئذ في إيطاليا بذلك  
الشعار المشير : « ليخرج البرابرة ! » *Fuori i barbari* ، ولكنه نداء  
جاء بعد فوات الأوان . واعزم أن ينفذ خطته فألف في ١١ أكتوبر سنة  
١٥١١ « حلف الوحدة المقدسة » منه ومن البندقية وأسبانيا ، ثم ما لبث أن  
ضم إليه سويسرة وإنجلترا . ولم ينته شهر يناير سنة ١٥١٢ حتى استردت  
البندقية مدينتي بريشيا وبرجامو بمعاونة الأهليين الفرجين المستبشرين .  
واستبقت فرنسا معظم جنودها في بلادها للدفاع عنها إذا ما هاجمها  
إنجلترا وأسبانيا .

غير أن قوة فرنسية واحدة بقيت في إيطاليا بقيادة شاب جرىء في  
الثانية والعشرين من عمره من رجال البلاط يدعى جاستون ده فوا *Gaston de Foix* .  
ومل هذا الشاب الحمول والحمود ، فسار على رأس جيشه  
وفك الحصار أولاً عن بولونيا ثم هزم البنادقة في إيزولا دلا اسكالا *Isoal della scala*  
ثم استعاد بريشيا ، وأحرز أخيراً نصراً مؤزرّاً ولكنه غالى  
الثن عند رافنا ( ١١ أبريل سنة ١٥١٢ ) . ونخضبت ميدان القتال دماء  
نحو عشرين ألف قتيل ، وأصيب جاستون نفسه ، وهو يحارب في الضفوف  
الأمامية ، بجراح مميتة .

ونال يوليوس بالمفاوضة ما كان قد خسره في ميدان القتال ؛ فقد أقنع

مكسمليان أن يوقع هدنة مع البندقية ، وأن ينضم إلى الاتحاد الذي تألف لقتال فرنسا ، وأن يستدعى الأربعة الآلاف من الجنود الألمان الذين كانوا جزءاً من الجيش الفرنسي . ثم زحف السويسريون يتمريضه على لمباردى بقوة تبلغ عشرين ألفاً : وتقهقرت القوات الفرنسية ، التي أفقدتها الانتصارات عدداً كبيراً من أفرادها ، وتخلت عنها الفرقة الألمانية ، أمام جمافل السويسريين والبنادقة والأسبان المحققين بها ، وارتدت إلى جبال الألب ، بعد أن تركت حاميات قليلة في بريشيان ، وكريمونا ، وميلان ، وچنوى . وهكذا استطاع الاتحاد المقدس بعد شهرين من الهزيمة التي كانت تبدو ماحقة في رافنا أن يطرد الفرنسيين من أرض إيطاليا بفضل الدبلوماسية البابوية ، وسماه الإيطاليون محرر إيطاليا .

وعقد المنتصرون مؤتمر مانتوا ( في أغسطس سنة ١٥١٢ ) لتوزيع الأسلاب ، وفيه أصر يوليوس على أن تعطى ميلان إلى مسيميليانو اسفورديسا **Masaimiliano Sforza** ابن لدوفيكو ، ونالت سويسرا لوجانو **Lugano** والإقليم الواقع عند رأس بحيرة مجيوري ؛ وأرغمت فلورنس على أن يسترد عرشها آل ميلديتشي واستعاد البابا كل الولايات البابوية التي استولى عليها آل بورچيا ، ثم حصل فضلاً عن هذا على پارما ، وپياتشند ، ومودينا ، ورجيو ، ولم ينج من قبضة الحبر الأكبر إلا فيرارا . ولكن يوليوس أورت خلته مشاكل كثيرة . أولها أنه لم يطرد الأجانب حقيقة من إيطاليا : فقد كان السويسريون لايزالون مستولين على ميلان بوصفهم حراساً لاسفورديسا ؛ ولايزال الإمبراطور يطالب بفيتشندسا وفيرونا مكافأة له ، وأما فرديناند الكاثوليكي أكثر المساومين دهاء فقد دعم قوة أسبانيا في جنوبي إيطاليا . وكانت قوة فرنسا وحدها هي التي قضى عليها في إيطاليا . فقد سير لويس الثاني عشر جيشاً آخر للاستيلاء على ميلان ، ولكن السويسريين بددوا شمله عند نوفارا **Novara** وقتلوا من رجاله ثمانية آلاف

(٦ يونيو سنة ١٥١٣) . ولم يكن باقياً للويس عند وفاته من أملاكه الإيطالية التي كانت من قبل رجة إلاموطني قدم مزعزع في جنوى .  
ولكن فرانسيس الأول أراد أن يسترد هذه الأملاك جميعها . وكان إلى هذا قد سمع ( كما يؤكد لنا برانتوم Brantôme ) أن سنيورا كليريتشي الميلانية Signora Clerice of Milan أجل نساء إيطاليا ، وتحرق شوقاً إليها<sup>(٩)</sup> . ولهذا زحف في شهر أغسطس من عام ١٥١٥ على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف رجل وتساق بهم ممرأ جديداً في جبال الألب ؛ وكان ذلك أكبر جيش شهدته هذه المعارك . وتقدم السويسريون لملاقاته ؛ ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة في مارنيانو على مبعدة أميال قليلة من ميلان ، ودامت يومين كاملين (١٣ - ١٤ ديسمبر سنة ١٥١٥) ؛ وحارب فيها فرانسيس نفسه حرب الأبطال ومنحه الفارس بابار في ميدان المعركة نفسه لقب فارس تكريماً له واعترافاً ببسالته . وترك السويسريون وراءهم في أرض المعركة ١٣٠٠٠ قتيل ؛ وتخلوا هم واسفوردسا عن ميلان ، ووقعت المدينة مرة أخرى غنيمة في أيدي الفرنسيين .

وطلب مستشارو ليو العاشر في تقلبهم وترددهم نصيحة مكيشلي . فحذروهم من أن يقفوا موقف الحياد بين الملك والإمبراطور بحجة أن البابوية ستكون حقيقة لا حول لها أمام المنتصر ، كما لو كانت قد اشتركت في القتال ؛ وأشار بعقد اتفاق مع فرنسا بوصفها أهون الشرين<sup>(١٠)</sup> ، وأمر ليو بالعمل بهذه النصيحة ؛ وفي الحادي عشر من ديسمبر عام ١٥١٥ اجتمع فرانسيس والبابا في بولونيا ليضعوا شروط الاتفاق . ووقع السويسريون صلحاً شبيهاً هذا مع فرنسا ؛ وانسحب الأسبان إلى نابلي ؛ وحاقت الخيبة مرة أخرى بالإمبراطور ، فسلم فيرونا للبنديقية . وهكذا انتهت (١٥١٦) حروب جلف كبريه الذي بدل فيه المشتركون مواقفهم كأنهم في مرقص ؛ وعادت الأحوال في آخر الأمر في جوهرها كما كانت في أوله ، ولم يفصل قط في

شيء إلا في أن تكون إيطاليا هي الميدان الذي تتطاحن فيه الدول الكبرى وتنشب فيه بينها معركة في إثر معركة أملا في السيادة على أوروبا . وسلمت البابوية بارما وبياتشندسا لفرنسا ، واسنردت البندقية أملاكها في شمالي إيطاليا ، ولكنها حل بها الخراب ماليا ، ونخربت إيطاليا ولكن الفنون والآداب ظلت فيها مزدهرة ، سواء كان ذلك بدافع الحادثات المفجعة أو بقوة الماضي الرضي الهنيء . لكن المستقبل كان ينبغي له أفدح الكوارث .

## الفصل الرابع

ليو وأوروبا : ١٥١٣ - ١٥٢١

ووضع مؤتمر بولونيا الهيبة الدبلوماسية في كفة ، راجحاً والسطوة في كفة أخرى ، وبقى أن تُعرف أية الكفتين هي الراجحة . وأقبل الملك الشاب الوسيم يزهو في معطفه الموشى بالذهب وفراء السمور ، والنصر معقود لألويته ، وجيشه من ورائه ؛ يتوق إلى أن يلتهم إيطاليا عن آخرها ، ولا يبقى فيها إلا البابا حارساً له على أملاكه ؛ وليس لليو في مقابل هذا إلا سحر منصبه ودهاء آل ميديتشي . ومن ثم فإذا كان ليو قد أثار الملك على الإمبراطور ، وانتقل من جانب إلى جانب بالحيلة والمراوغة ، ووقع مع كل منهما المعاهدات ضد الآخر ، إذا كان قد فعل هذا بحكم الظروف فليس لنا أن نغالي في وزن أعماله هذه بميزان العدالة الصارمة . ذلك أنه لم يكن لديه من السلاح ما يستخدمه لنيل أغراضه غير هذه الوسيلة ، ولقد كان عليه أن يدافع عن تراث الكنيسة الذي وكل أمره إليه ؛ ثم إن أعداءه كانوا هم أيضاً يستخدمون هذا السلاح نفسه بالإضافة إلى جيوشهم ومدافعهم .

ولقد بقيت الاتفاقات السرية التي عقدت في ذلك الاجتماع في طيات الخفاء إلى يومنا هذا . ويلوح أن فرانسس حاول أن يستدرج ليو إلى مخالفته ضد أسبانيا ؛ فطلب إليه ليو أن يمهل حتى يفكر في الأمر - وتلك هي الطريقة الدبلوماسية في الرفض ؛ وسبب ذلك أن سياسة الكنيسة التقليدية التي طال عليها الأمد لا تسمح بأن تطوق دولة واحدة أملاكها من الشمال والجنوب (١١) . وكانت النتيجة الواضحة الوحيدة لاتفاق عام ١٥١٦ هي

إلغاء قرار يورج التنظيمي The Pragmatic Sanction of Bourges . وكان هذا القرار المعقود في عام ١٤٣٨ قد أقام مجلساً عاماً له السلطة العليا على البابوات ومنح ملك فرنسا حق تعيين ذوى المناصب الكنيسة الكبرى في فرنسا . ووافق فرانسيس على إلغاء هذا القرار ، بشرط أن يبقى للملك حق الترشيح لهذه المناصب ؛ وقبل ليو هذا الشرط . وقد يبدو أن هذا كان هزيمة للبابا ، ولكن ليو حين قبله إنما كان يجرى على سنة جرى بها العمل في فرنسا من عدة قرون ؛ وكان يفعله هذا يوفق دون قصد بين الكنيسة والدولة في فرنسا توفيقاً لا يُبقي للملكية الفرنسية أسباباً مالية لتأييد حركة الإصلاح الديني . ثم إنه بهذا العمل قد وضع حداً للنزاع الذى طال عليه الأمد بين فرنسا والبابوية على سلطة المجالس والبابوات وحدود هذه السلطة .

واختتم المؤتمر بأن طلب الزعماء الفرنسيون إلى ليو أن يغفر لهم أنهم شنوا الحرب على سلفه ؛ ووجه إليه فرانسيس بهذه المناسبة الخطاب قائلاً :  
« أيها الأب المقدس ! ليس لك أن تعجب من أننا كنا أعداء ليو ليوس الثانى فقد كان هو على الدوام أعدى أعدائنا ، ولم نناق في أيامنا نخصها أقوى منه ، ذلك بأنه كان في واقع الأمر قائداً بارعاً ممتازاً ، ولو أنه كان قائداً للجند ، لكان أعظم منه بابا » (١٢) . وغفر ليو ذنوب أولئك الثائبين الأشداء على بكره أبيهم ، وباركهم ، وكادوا في آخر الاجتماع أن يقطعوا قدميه تقبيلاً (١٣) .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا تعلو هامته هالة من المجد ، واستسلم زمناً ما للعشق واللهو . ولما مات فرديناند الثانى ( ١٥١٦ ) ، فكر ملك فرنسا مرة أخرى في غزو نابلى ، ولعله أراد أن يتخذ هذا العمل وسيلة مجيدة للتخلص من زيادة السكان في فرنسا . ولكنه مع ذلك عقد معاهدة للصالح مع شارل الأول حفيد فرديناند الذى أصبح الآن ملكاً على أرغونة ، وقشتالة ، ونابلى ، وصقلية . فلما مات مكسميليان ( ١٥١٩ ) ، ورشح حفيده شارل ليخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ظن فرانسيس

أنه أجدر بتاج الإمبراطورية من ملك أسبانيا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، وأخذ يسعى بنشاط لأن يفوز بالانتخاب لهذا المقام الرفيع . ووجد ليو نفسه مرة أخرى في أخطر المواقف . لقد كان يفضل أن يوئيه فرانسيس ، لأنه رأى أن اتحاد نابلي ، وأسبانيا ، وألمانيا ، والنمسا ، والأراضي الوطيفة ، تحت سلطان ملك واحد ، يوسع رقعة ملكه ، ويزيد ثروته وعدد رجاله زيادة تحل بتوازن القوى ، ذلك التوازن الذي كان فيه حتى ذلك الوقت وقاية للولايات البابوية . لكن اختيار شارل رغم معارضة البابا سينفر منه الإمبراطور الجديد في الوقت الذي يحتاج فيه أشد الاحتياج إلى معونته للقضاء على الفتنة البروتستنتية . وتردد ليو أطول مما يجب في أن يشعر الناخبين بنفوذه ، واختير شارل الأول إمبراطوراً وأصبح هو شارل الخامس . وواصل البابا سياسة توازن القوى فعرض على فرانسيس أن يحالفه ، ولما تردد الملك كما تردد هو من قبل وقع ليو على حين غفلة اتفاقاً مع شارل ( ٨ مايو سنة ١٥٢١ ) ، عرض عليه الإمبراطور الشاب فيه كل شيء تقريباً : عودة بارما وبياتشندسا ، ومعونته ضد فيرارا واوثر ، وإعادة فتح ميلان وإعطائها إلى آل اسفوردسا ، وحماية الولايات البابوية وفلونس إذا هوجمت .

وتجدد القتال في شهر سبتمبر من عام ١٥٢١ ، وقال الإمبراطور في ذلك : « إني أنا وابن عمي فرانسيس على تمام الوفاق ؛ فهو يريد ميلان وأنا أريدها » (١٤) . وتولى قيادة القوات الفرنسية في إيطاليا أوديه ده فوا Odet de Foix فيكونت لوتريه Vicomte de Lautrec . وكان فرانسيس قد ولاه هذه القيادة بناء على رجاء أخته التي كانت في ذلك الوقت عشيقة الملك . وغضبت لويز أميرة ساقوى Louise of Savoy أم الملك من هذا التعيين وحولت في الخفاء المال الذي أعده فرانسيس لجيش لوتريه إلى أغراض أخرى (١٥) ؛ وامتنع من كان في ذلك الجيش من السويسريين عن القتال لمنع مرتباتهم عنهم . ولما اقترب من ميلان جيش بابوي قوى بقيادة القائد

المحتك برسبير و كورلنا ماركيز يسكارا والمؤرخ جوتشيارديني ، آثار انتصار  
الإمبراطورية من حزب الجبلين فتنة ناجحة بين الأهلين الذين كانوا يرزحون  
تحت أعباء الضرائب الفادحة ، انسحب على أثرها لوقريه من المدينة إلى  
أملاك البندقية ؛ واستولى جنود شارل وليو على المدينة وكادوا لا يريقون في  
سبيل ذلك قطرة دماء ؛ وأصبح فرانتشيسكو ماريا اسفورديسا وهو ابن آخر  
من أبناء لدوفيكو دوقاً لميلان تابعاً للإمبراطور ، وكان في مقدور ليو أن  
يواجه الموت وهو في نشرة الانتصار .

## الفصل الخامس

أدريان السادس : ١٥٢٢ - ١٥٢٣

وكان البابا الذي خلفه غير ما كان عليه البابوات في رومة إبان عصر النهضة : كان بابا عاقداً العزم على أن يكون رجلاً مسيحياً مهما كلفه ذلك من جهد . وكان مولده من أسرة وضيعة في أوترخت Utrecht ( ١٤٥٩ ) ، وأشرب حب العلم والتقى من طائفة « إخوان الحياة المشتركة » في ديفنتر ، Deventer والفلسفة المدرسية واللاهوت في لوفان Louvain ؛ واختبر في الرابعة والثلاثين من عمره مديراً لتلك الجامعة ، ثم عين في سن السابعة والأربعين مربيّاً لشارل الخامس ، وفي عام ١٥١٥ أرسل في بعثة إلى أسبانيا ، وفيها أعجب فرديناند بمقدرته الإدارية ، وباستقامته الخلقية إعجاباً حمله على تعيينه أسقفاً لطرطوشة . ولما توفي فرديناند ساعد أدريان الكردينال اكسمينس Ximenes على أن يحكم أسبانيا أثناء غيبة شارل ؛ وفي عام ١٥٢٠ أصبح نائباً للإمبراطور على قشتالة . وظل وهو يتدرج في معارج الرقي متواضعاً معتدلاً في كل شيء عدا قوة العقيدة ، بسيطاً في معيشته ، يتعقب الملحدين بحماسة جمعت قلوب الشعب على حبه . ووصلت أنباء فضيلته إلى رومة فاختاره ليو كرديالا ، ولما انعقد المجلس المقدس بعد وفاة ليو رشح أدريان للجلوس على كرسي البابوية ، وكان ذلك فيما يظهر على غير علم منه ، وأكبر الظن أنه كان بتأثير شارل الخامس . وفي الثاني من شهر يناير سنة ١٥٢٢ اختير للجلوس على كرسي البابوية رجل من غير الإيطاليين لأول مرة منذ عام ١٣٧٨ ، ومن التيونون لأول مرة منذ عام ١١٦١ .

ترى كيف يستطيع أهل رومة وهم الذين لا يكادون يسمعون شيئاً عن أدريان يصفحون عن هذه الإهانة التي لحقت بهم باختياره بابا ؟ لقد اتهم

الشعب الكرادلة بأنهم طاشت أحلامهم ، : وأنهم « خانوا دم المسيح » وأذيعت على الشعب منشورات يطلب فيها أصحابها أن يعرفوا كيف « استسلمت الفاتيكان لغضب الألمان » (١٦) . وكتب أريتينو قصة كانت آية في الطعن والهجاء سمي فيها الكرادلة « غوغاء مدنسين » ، ودعا الله أن يواروا الثرى أحياء (١٧) . وغطى تمثال يسكويينو بالمطاعن والهجاء ؛ وتوارى الكرادلة لأنهم كانوا يخشون أن يظهروا أمام الجماهير ، وعزوا هذا الاختيار إلى الروح القدس الذي أوحى به إليهم على حد قولهم (١٨) . وغادر كثير منهم مدينة رومة فراراً من وقاحة الشعب وبطش الإصلاح الكنسى . أما أدريان فقد بقى هادئاً في أسبانيا ينجز فيها عمله الذي لم يكن قد تم بعد . وأبلغ الحكومة البابوية أنه لا يستطيع القدوم إلى رومة قبل أن يحل شهر أغسطس . ولم يكن يعلم بفخامة الفاتيكان ، فكتب إلى صديق له من أهل رومة يطلب إليه أن يستأجر له بيتاً متواضعاً ذا حديقة ليقيم فيه . ولما قدم إلى المدينة آخر الأمر ( ولم تكن عيناه قد وقعتا عليها من قبل ) ؛ روع وجهه الأصفر الزاهد وجسمه النحيل من شاهدهوه ، وبعثا في قلوبهم إجلاله ومهابته ؛ ولكنه حين نطق وظهر للإيطاليين أنه لا يعرف اللغة الإيطالية ، وأنه حين يتكلم اللاتينية يخرج الحروف من حلقه ، فكان بذلك بعيداً كل البعد عن النغم الإيطالى الغذب والرشاقة الإيطالية ، لما فعل هذا امتلأت قلوب أهل رومة غضباً وبأساً .

وأحس أدريان أنه سيجب في الفاتيكان وأعلن أن ذلك القصر أبق بقسطنطين منه بالقديس بطرس ، وأمر بوقف جميع أعمال الزخرفة في - حجره ، وأقال جميع أتباع رفائيل الذين كانوا يقومون بهذا العمل ، وأبعد جميع السائسين الأربعة الذين كان ليو يستعملهم في اسطبلاته عدا أربعة منهم ولم يبق من خدمه الخصوصيين إلا اثنين لا أكثر - كلاهما من الهولنديين - وأمرهما أن يخفضا نفقات بيته إلى دوقة واحدة ( اثني عشر دولاراً ونصف

دولار) في اليوم . واشتمأت نفسه مما شاهده في رومة من الفساد الجنسي ومن بدىء القول والكتابة ، وقال ما قاله لورندسو ولوثر من أن عاصمة المسيحية بوثة أقدار ومظالم . ولم يكن يعنى أقل عناية بما عرضه عليه الكرادلة من روائح الفن القديم ، وندد بالتمثيل ووصفها بأنها من بقايا الوثنية ، وسور قصر بلقدير الذي كان يحتوى على أحسن مجموعة في أوروبا من التماثيل الرومانية القديمة (١٩) . وكان يفكر فوق ذلك أن يضيق الخناق على الكتاب الإنسانيين والشعراء ، فقد خيل إليه أنهم يعيشون ويكتبون كما يعيش ويكتب الوثنيون الذين نفوا للمسيح . ولما أن هجاه فرانتشيسكو بيرنى بأقذع الألفاظ ووصفه بأنه هولندي همجى عاجز عن فهم ما ينطوى عليه الفن الإيطالي والآداب والحياة الإيطالية من ظرف ورقة ، أنذره أدريان هو وأمثاله بأن سوف يغرق جميع الهجائين في نهر الشير (٢٠) .

وكان هم أدريان الأول ومظهر عاطفته الدينية وتقواه في أثناء ولايته أن يعود بالكنيسة من حالها في أيام ليو إلى ما كانت عليه في عهد المسيح . ولهذا اتخذ أقصر الطرق دون مجاملة أو مداجاة لإصلاح ما استطاع أن يصل إليه من المفاسد الكنسية ؛ فالغنى ما لا ضرورة له من المناصب ، واستخدام في ذلك من العنف ما كان في بعض الأحيان طيشاً منه وعدم بصيرة ؛ والغنى العقود التي ارتبط بها ليو بأن يدفع معاشاً سنوياً لمن ابتاعوا مناصب في الكنيسة ؛ وبذلك خسر ٢٥٥٠ ممن ابتاعوا هذه المناصب واستثمروا فيها أموالهم ، خسروا رأس المال والفائدة إذا صح هذا التعبير ، وترددت أصدااء صرخاتهم في أرجاء رومة ونادوا بأنهم قد خدعوا ونهبت أموالهم ، وحاول أحد الضحايا أن يغتال البابا ، وقال البابا لأقاربه الذين جاءوه يطلبون أن يعينهم في مناصب دينية ذات مرتبات مرغدة لا يقابلها عمل يقومون به - قال لهم ارجعوا واكسبوا العيش بالعمل الشريف ، وقطع دابر الرشاش وممنح لمناصب للأقارب ، وتعقب ما في الحكومة البابوية من فساد ، وفرض

عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الأموال العامة ، وعاقب الكرادلة المذنبين بنفس العقوبات التي كان يوقعها على أصغر رجال الدين . وأمر الأساقفة والكرادلة أن يعودوا إلى مقر مناصبهم ، وألقى عليهم دروساً في الأخلاق التي يريد منهم أن يتصرفوا بها ، وكان مما قاله لهم إن سمعة رومة السيئة أصبحت تلوكها الألسنة في جميع أنحاء أوروبا . ولم يشأ أن يتهم الكرادلة أنفسهم بالرذيلة ، ولكنه اتهمهم بأنهم يتركون الرذيلة تتفشى في قصورهم دون أن تلقى عقاباً . وطالبهم بأن يضعوا حداً لترفهم ، وأن يمتنعوا بإيراد أقصاه ٦٠٠٠ دوقه ( ٧٥,٠٠٠ دولار ) في العام . وكتب سفير البندقية في الفاتيكان وقتئذ يقول : « إن جميع رجال الكنيسة في رومة قد ذهبت عقولهم من شدة الرعب ، حين رأوا ما استطاع البابا أن يفعله في خلال ثمانية أيام » (٢١) .

لكن الأيام الثمانية لم تكف لقطع دابر الفساد كما لم تكف لقطع دابره الثلاثة عشر شهراً من ولاية أدريان النشيطة . لقد أخفت الرذيلة رأسها إلى حين ، ولكنها لم يقض عليها القضاء المبرم ، ذلك أن الإصلاح قد ضايق العدد الجهم من الموظفين ، ولقى مقاومة مكبوتة ، وأثار أملاً في أن يعجل الله منية أدريان . وأحزن البابا وأقضى مضجعه عجز الإنسان عن أن يصلح الناس ؛ وكثيراً ما جهر بقوله : « ما أكثر ما تعتمد مقدرة الإنسان وكفايته على العصر الذي يقوم فيه بأعماله ! » - وقال لصديقه القديم هيز Heeze وهو قلق مضطرب الخاطر : « ما أكبر الفرق بين هذه الحياة وما كنا ننعم به من هدوء في لوفان ! » (٢٢) .

وكان وهو في هذه المتاعب الداخلية يواجه بأقصى ما يستطيعه من شرف مشاكل السياسة الخارجية الخطيرة . فقد أعاد أربينو إلى فراقشيسكو ماريا دلا روفيري . وترك ألفنسو في فيرارا لايزعجه شيء . ولما أن انتهز الطغاة المطرودون من بلادهم فرصة سياسة البابا السلمية فاستولوا على

زمام السلطة في بيروجيا ، وريميني وغيرهما من الولايات البابوية ، أهاب أدريان بالإمبراطور شارل وبالمملك فرانسيس أن يتصالحا أو في القليل أن يتهادنا ، ويشتركا في صد الأتراك الذين كانوا يستعدون لغزو رودس . ولكن شارل فضل أن يوقع مع هنري الثامن ملك إنجلترا معاهدة ونزر Windsor ( ١٩ يونية سنة ١٥٢٢ ) التي تعهدا فيها بالاشتراك في الهجوم على فرنسا ، وفي الحادي والعشرين من ديسمبر استولى الأتراك على رودس آخر معاقل المسيحية في شرقي البحر المتوسط ، وترددت الإشاعات بأنهم يضعون الخطط للنزول بأبوليا والاستيلاء على إيطاليا المضطربة المختلة النظام . ولما اعتقل بعض الجواسيس الأتراك في رومة بلغ الهلع بين السكان حداً أذكر الناس بالخوف الذي انتشر فيها حين توقعت أن يغزوها هنيبال بعد انتصاره في كاني عام ٢١٦ ق . م . وكان مما أترع الكأس ألما لأدريان أن الكردينال فرانتشيسكو سُدِرِينِي كبير وزرائه وموضع ثقته ، ونائبة الأول في المفاوضات التي كانت تهدف إلى عقد صلح أوربي ، أخذ يدبر في السر مع فرانسيس هجوماً فرنسياً على صقلية . ولما أن كشف أدريان المؤامرة ، وترامى إليه أن فرانسيس يحشد الجند على حدود إيطاليا ، خرج عن الحياد وعقد حلفاً بين البابوية وشارل الخامس . وبعد أن تحطم جسمه وروحه على هذا النحو أصابه المرض ومات في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٦٢٣ . وأوصى بتوزيع أملاكه كلها على الفقراء ، وكان آخر ما أصدره من التعليمات أن تكون جنازته هادئة قليلة النفقة .

وحيث رومة موته بهجة أعظم مما كانت تحي بها المدينة نجاتها من الترك لو أنهم جاءوها فاتحين . وقال بعضهم إنه قد سُمِّ لمعاداته الفنون ، وألصق أحد الماجنين على باب طيب البابا رقعة كتب عليها بالإيطالية Liberratori Patriae تليها الحروف الآتية S P Q R يعبر بها عن شكر مجلس الشيوخ وشعب رومة « لحرر الوطن » . وكتب عدد لا يحصر له من عبارات الهجاء

لتسوئة سمعة الحبر المتوفى ، فاتهم بالنهم ، والسكر ، وأفضع أنواع الفساد الخلقى ، وبدل الحقد والسخرية كل عمل قام به في حياته فأصبح شراً ونخبثاً ، واحتفرت « صحافة » رومة بما كان باقياً لها من حرية بمقالاتها في الطعن على البابا قرها بنفسها : لقد كان مما يؤسف له أن أدريان لم يستطع أن يفهم النهضة على حقيقتها ، ولكن عجز النهضة عن أن تسمح بوجود بابا مسيحي في عهدها كان أكثر من ذلك جرماً وأشد حماقة :

## الفصل السادس

### كلمت السابع

#### الفترة الأولى من حياته

ظل المجمع المقدس الذي اجتمع في أول اكتوبر سنة ١٥٢٢ سبعة أسابيع في نزاع دائم حول اختيار من يخلف أدريان ، ثم انتهى أخيراً بترشيح رجل كان بإجماع الآراء خير من يصلح لهذا المنصب . كان جويليو ده ميديتشي ابنا غير شرعى للرجل الظريف جوليانو الذي خر ضحية مؤامرة باتسى من عشيقة له تدعى فيورنا ما لبثت أن اختفت من صفحات التاريخ . وأخذ لورندسو الغلام إلى بيته بين أسرته ورباه مع أبنائه ؛ وكان منهم ليو الذي أعنى وهو بابا جوليو من العقبة القانونية القائمة في سبيله ، وهى أنه ابن غير شرعى ، ثم عينه كبير الأساقفة في فلورنس ، ثم رقاها كردنالا ، ثم كان المدير الحازم لمدينة رومة ، وكبير وزراء حكومته البابوية ؛ ولما بلغ كلمنت الخامسة والأربعين كان طويل القامة ، وسم الخلق ، عظيم الثراء غزير العلم ، حسن الآداب ، طيب السيرة ، يعجب بالآداب ، والعلوم ، والموسيقى ، والفن ، ويناصرهما . ورحبت رومة بارتقائه الكرسي البابوى بالفرح والابتهاج ورأت فيه دعوة إلى عهد ليو الذهبى ، وتنبأ بمبو بأن كلمنت السابع سيكون خيراً من عرفتهم الكنيسة من حكامها وأعظمهم حكمة (٣٣) .

وبدأ عهده أحسن بداية ، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التي كانت له ، والتي كانت تدر عليه دخلاً سنوياً مقدارها ٦٠٠٠٠٠ دوقة . وقد

جمع حوله قلوب العلماء والنسّاحين باجتذابهم إلى خدمته ، أو نصحهم بالهبات ، ووزغ العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم ، واستمع إلى كل من له شكاية ، ومنح الصدقات بسخاء ، إذا كان أقل من سخاء ليو فإنه كان أكثر منه حكمة ، وسحر جميع القلوب بمجاملته كل إنسان وكل طبقة . وقصارى القول أن بابا من البابوات لم يبدأ حكمه بداية طيبة مثل بدايته ولم ينتمه بأسوأ من خاتمته .

وكان العمل الذى يواجه كلمنت وهو قيادة سفينة البابوية السياسية الطريق المأمون بين فرانسس وشارل فى حرب تكاد تكون حرب حياة أو موت ، فى الوقت الذى كان الأتراك يجتاحون فيه بلاد المجر ، وكانت الثورة تشتعل نارها فى ثلث أوروبا ضد الكنيسة ، كان هذا العمل أكثر مما تستطيعه مقدره كلمنت كما كان أكثر مما تستطيعه مقدره ليو . ونخلق بنا أن نقول إن الصفات التى تبرزها الصورة الفخمة التى رسمها سبستيانو دل بيومبولكلمنت فى بداية حكمه صورة خادعة . ذلك أنه لم يظهر فى أعماله تلك العزيمة الماضية التى تبدو واضحة فى ملامح وجهه ، وحتى فى هذه الصورة يبدو شيء من الملل والضعف فى الجفون المتعبة المنسدلة فوق العينين الضجرتين . والحق أن كلمنت قد اتخذ ضعف العزيمة نقطة له وسياسة مرسومة . وكان يسرف فى التفكير ويظنه خطأ بديلا من العمل ، بدل أن يكون هادياً له ومرشداً . ولقد كان فى وسعه أن يجد مائة سبب وسبب لاتخاذ قرار بإبرام أمر من الأمور ، ومائة سبب وسبب مثلها تبرر عدم إبرامه ، وكأنما كان أغبي الخلوقات طراً يجلس على عرش البابوية . وقد هجاه بيرنى فى أبيات مريرة تنبأ بحكم الخلف عليه فقال :

بابوية تتألف من التحيات ،

والمناقشات ، والاعتبارات ، والمجاملات

ومن عبارات أكثر من هذا ، ومن ثم ، ونعم ، وحسن ، وربما ،

وقد يكون ، وما إليها من الألفاظ المتناقضة . . .

ومن قدمين ثقيلتين كالرصاص ، وحياد بارد خامل . . .

وإن شئت الحق الصريح ، فإنك ستعيش لتري .

البابا أدريان وقد نودى به قديماً بفضل هذه البابوية (٢٤) .

واتخذ له من المستشارين چيان ماتيو جبرتي Gianmatteo Giberti الذى

كان يميل إلى فرنسا ، ونيقولوس فن اسكونبرج Nikolaus von Segönberg

الذى كان يميل إلى الإمبراطورية ، وترك عقله مشتتاً بين الرجلين ، ولما أن

قرر الانحياز إلى فرنسا - قبل أسابيع قليلة من الكارثة التى حلت بها فى

پافيا - استنزل على رأسه وعلى بلده كل ما يتصف به شارل من مكر

ودهاء ، وكل ما له من قوة ، وكل ما يثور فى قلوب الجيش البروتستنتى

من غضب دفين صبه على رومة .

وكانت الحجة التى يبررها كلمنت موقفه أنه يخشى قوة الإمبراطور

وفى يده لمباردى وناپلى ؛ ويرجو بانحيازه إلى فرنسا أن يحصل على صوتها

حين يعرض شارل فكرته التى تراوده وتقلق خاطره وهى تأليف مجلس

عام يفصل فى أمور الكنيسة . ولما عبر فرانسس جبال الألب بجيش جديد

قوامه ٢٦,٠٠٠ من الفرنسيين ، والإيطاليين ، والسويسريين ، والألمان ،

واستولى على ميلان ، وحاصر بافيا ، وقع كلمنت سراً شروط حلف مع

فرانسس ( ١٢ ديسمبر سنة ١٥٢٤ ) فى الوقت الذى كان يؤكد فيه لشارل

وفاءه ومودته ؛ ثم ضم فلورنس والبندقية إلى هذا الحلف ، وأجاز لفرانسس

المنتصر على كره منه أن يجمع الجند من الولايات البابوية ، وأن يرسل

جيشاً ليحارب ناپلى مخترباً أراضى البابا . ولم يغفر له شارل قط هذه

الخدعة ، وأقسم قائلاً : « لأذهبن إلى إيطاليا ، وأثأرن لىفسى من أساعوا

إلى ، وعلى رأسهم البابا الجبان النذل . ولعل مارتن لوثر سيصبح رجلاً

إذا شأن فى يوم من الأيام » (٢٥) . وفكر بعض الناس وقتئذ فى اختيار لوثر

بابا ، وأشار عدد ممن يحيطون بالإمبراطور أن يطعن في اختيار كلمنت  
بمحجة أنه ابن غير شرعي (٢٦) .

وسير شارل جيشاً ألمانيا بقيادة جورج فن فرندسبرج Georg von Frundsberg وماركيز بيسكارا Marquis of Pescara ليهاجم الفرنسيين  
خارج بافيا . وعطلت الحركات العسكرية الضعيفة عمل المدفعية الفرنسية ، في  
الوقت الذي كانت فيه نيران البنادق الأسبانية تهز أبرماح السويسريين ؛ وكاد  
الجيش الفرنسي أن يفنى عن آخره في موقعة من أشد المواقع الحاسمة في  
التاريخ ( ٢٤ - ٢٥ من فبراير سنة ١٥٢٥ ) . وسلك فرانسيس في هذه  
اللمحة مسلك الشهامة والكرامة : فبينما كان جيشه يتقهقر إذا هو يقفز في  
وسط صفوف العدو ويقتل بيده منهم مقتلة عظيمة ؛ ولما قتل جواده من  
تحته لم ينقطع عن القتال ، حتى إذا نارت قواه آخر الأمر ، ولم يعد يقوى  
على المقاومة ، وقع في الأسر مع عدد من ضباطه . وكتب من خيمة بين  
المتصرين إلى أمه رسالة كثيراً ما يقتبس نصف عباراتها المقتبسون ، قال فيها  
« لقد خسرنا كل شيء إلا الشرف - وإلا بدني فهو سليم » . وأمر شارل  
بأن يكتنق في أسبانيا أن يرسل الملك ليسجن في قلعة قرب مدريد .

وانحازت ميلان إلى الإمبراطور ، وشعرت إيطاليا كلها أنها أصبحت  
تحت رحمته ، ونفذته دولة إيطالية في إثر دولة بالرشا المختلفة لكي يسمح  
لها بالبقاء . ونحش كلمنت أن يغزو جيش الإمبراطور بلاده ، وأن يثور  
الشعب في فلورنس على آل ميديتشي ، فخرج من حلفه مع فرنسا وأمضى  
( في أول أبريل سنة ١٥٢٥ ) معاهدة مع شارل ده لانوي Charles de Lannoy  
عامل شارل على ناپلى ، تعهد فيها البابا والإمبراطور بأن يتعاونوا فيما بينهما ؛  
فيحصى الإمبراطور آل ميديتشي في فلورنس ويرضى أن يقيم فرانتشيسكو  
ماريا اسنوردسا نائباً عنه في ميلان ؛ على أن يدفع البابا لشارل مقابل إهاناته  
السابقة له ، وضماناً لخدمات الإمبراطور المستقبلية ، مائة ألف دوقة

( ١,٢٥٠,٠٠٠ دولار ) (٢٧) ، كانت الجيوش الإمبراطورية في أشد الحاجة إليها . ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أغضت كلمنت البصر عن مؤامرة دبزها جيرو لومو موروني Girolomo Morone لتحرير ميلان من سيطرة الإمبراطور . وكشف مركزا إيسكارا سر هذه المؤامرة لشارل ، وزج موروني في السجن . وعامل شارل فرانسس الأسير بالماملة التي يعامل بها السنور الفأر الواقع في قبضته ، ذلك أنه بعد أن خدر أعصابه بسجنه ومجاملته أحد عشر شهراً ، وافق على أن يطلق سراحه مشروطاً عليه ذلك الشرط المستحيل التنفيذ ، وهو أن يسلم الملك كل ما لفرنسا من الحقوق ، ثابتة كانت أو مزعومة ، على جنوى ، وميلان ، وناپلي ، وفلاندرز ، وارتوا ، وتورناي ، وبرغندي ، ونبره ( ناغار ) ، وأن يمد فرانسس شارل بما يحتاجه من السفن والرجال لتسيير حملة على رومة أو على الأتراك ، وأن يتزوج فرانسس إليانورا أخت شارل ، وأن يسلم الملك أكبر ابنيه وهما فرانسس البالغ من العمر عشر سنين ، وهنري البالغ تسعاً إلى شارل ليكونا رهينتين عنده ضماناً للوفاء بهذه الشروط . ووافق فرانسس على هذه الشروط كلها بمقتضى معاهدة مدريد ( ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ ) . وأكد هذه الموافقة بأغلظ الأيمان ، وإن كان ضميره يداجي ويوارب . وسمح له بعدئذ في السابع عشر من مارس أن يعود إلى فرنسا تاركاً ولديه سجينين في مكانه . فلما وصل إليها أعلن أنه لا ينوي الاستمسك بالوعد التي بذلها تحت الضغط والإرهاب ، وأعفاه كلمنت مستعيناً بالقانون الكنسي من التمسك بأيمانه ، وفي الثاني والعشرين من مايو وقع فرانسس ، وكلمنت ، والبندقية ، وفلورنسين ، وفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا حلف كنيك ، وتعهدوا فيه بإرجاع آستي ، وجنوى إلى فرنسا ، وإعطاء اسفوردسا ميلان إقطاعية فرنسية ، وأن ترد إلى كل ولاية إيطالية كل ما كان لها من أملاك قبل الحرب ، وأن يُفندي الأسرى الفرنسيون بمليون كرون ، وأن تمنح ناپلي

لأى أمير إيطالي يرضى أن يؤدي عنها إلى ملك فرنسا جزية سنوية بمقدارها ٧٥,٠٠٠ دوقية . ووجهت دعوة رقيقة إلى الإمبراطور لتوقيع هذا الاتفاق ، وقرر الحلف الجديد أنه إذا رفض الإمبراطور توقيع شروطه ، حاربه حتى يطرد هو وجميع قواته من إيطاليا (٢٨) .

وندد شارل بالحلف وأعلن أنه يناقض الأيمان المقدسة التي أقسمها فرانسيس ، كما يناقض شروط المعاهدة التي وقعها كلمنت مع لانوى . وإذا كان هو غير قادر على الذهاب إلى إيطاليا في ذلك الوقت ، فقد كاف هوجو ده منكادا Hugo de Moncada بأن يجتذب كلمنت إلى صفه بالوسائل الدبلوماسية ، فإذا عجز أثار ثورة على البابا يقوم بها آل كولنا وسكان رومة . وقام منكادا بهذه المهمة أحسن قيام ، وأوثق صلوات المودة بين كلمنت وآل كولنا ، وأقنع البابا بأن يسرح الجنود الذين يقومون بحراسته ، وسمح لآل كولنا بأن يمضوا في تأمرهم للاستيلاء على رومة . وبينما كانت المسيحية ماضية في الغدر والاقتتال على هذا النحو ، كان الأتراك بقيادة سليمان القانوني يضربون أهل المجر الضربة القاسية في موهاكس Móhacs ( ٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٦ ) ، ويستولون على بودابست ( ١٠ سبتمبر ) . وارتاع كلمنت لخوفه من أن لا تصبح أوروبا بروتستنتية فحسب ، بل مسلمة أيضاً ، فأعان إلى الكرادلة أنه يفكر في الذهاب إلى برشلونة بنفسه ليطلب إلى شارل أن يعقد الصلح مع فرانسيس ، وأن يضم العاهلان قواتهما لمحاربة الأتراك . وكان شارل في ذلك الوقت يجهز أسطولا ، يقصد به كما قيل في رومة ، أن يغزو إيطاليا ويخلع البابا (٢٩) .

وفي العشرين من سبتمبر دخل آل كولنا رومة ومعهم خمسة آلاف جندي ، وتغلبوا على ما لقوا من مقاومة ضعيفة ، ونهبوا قصر الفاتيكان ، وكنيسة القديس بطرس ، وبورجو فتشيو القريبة منها ، وفر كلمنت إلى قلعة سانت أنجيلو . ووجد قصر البابا من كل ما فيه بما في ذلك الصور

التي رسمها رفائيل على أقمشة الجدران وسرق تاج البابا نفسه ، والأواني المقدسة ، والمخلفات المدخرة ، والملابس البابوية الثمينة ؛ وخرج جندي استخفه المرح فارتدى ثوب البابا الأبيض ، وقلنسوته الحمراء ، وأخذ يوزع البركات البابوية بوقار ساخر (٣٠) . وفي اليوم التالي رد منكادا لكلمنت التاج البابوي ، وأكد له أن الإمبراطور لا يصر للبابوية إلا الخير ، وأرغم البابا المرتاع أن يوقع هدنة مع الإمبراطورية تدوم أربعة أشهر ، وأن يعفو عن آل كولنا .

ولم يكف منكادا ينسحب إلى نابلي حتى حشد كلمنت قوة بابوية جديدة قوامها سبعة آلاف جندي ، أمرها في آخر شهر أكتوبر بأن تزحف على حصون آل كولنا ، وطلب في الوقت نفسه إلى فرانسيس الأول وهنري الثامن أن يمدها بالعون ؛ فأما فرانسيس فقد بعث إليه يعتذر ويسوف ، وأما هنري فقد كان منهمكا في الواجب الثقيل واجب إنجاب ابن يخلفه ، ولهذا لم يرد بشيء . وكان ثمة جيش بابوي آخر في الجنوب أعجزته عن العمل سياسة التسوية الغادرة في ظاهرها التي جرى عليها فرانتشيسكو ماريا دلا روفيري دوق أربينو الذي لم ينس أن ليو العاشر أخرجه من دوقيته ، ولم يكن يرى في سماح أدريان وكلمنت له بالعودة إليها والبقاء فيها فضلا لها كبيراً يشكره لها . وكان مع هذا الجيش قائد أعظم منه بسالة هو الشاب جيوفني ده ميديتشي الوسيم الخلق ابن كترينا اسفوردسا الذي ورث عنها روحها العالية والذي سمى جيوفني دلي باندي نيري - جيوفني ذا الرباط الأسود - لأنه هو وجنوده قد لبسوا شرائط سوداً حزناً على موت ليو (٣١) . وكان جيوفني هذا يتحرق شوقاً إلى قتال ميلان ، ولكن فرانتشيسكو ماريا تغلب عليه .

## الفصل السابع

نهب رومة : ١٥٢٧

وكان شارل لايزال مقيماً في أسبانيا يحرك منها بيادقه التي يسيطر عليها سيطرة الساحر من بعيد . ومنها أمر عماله بأن يحشدوا جيشاً جديداً . فاتصل هؤلاء بـجورج فن فرندسبرج الزعيم الثيروي المغامر ، الذي كانت جنوده الألمانية المرتزقة قد ذاعت شهرتها في الآفاق . ولم يكن في وسع شارل أن يعرض على هذا الزعيم المغامر وجنوده إلا القليل من المال ، ولكن عماله منوهم بالنهب الكثير في إيطاليا . وكان فرندسبرج لايزال كاثوليكية بالاسم ، ولكنه كان شديد العطف على لوثر ، ويكره كلمنت لأنه في رأيه عدو الإمبراطورية اللدود . ورهن هذا الزعيم المغامر قصره وسائر أملاكه ، وحتى حلى زوجته نظير مبلغ ٣٨,٠٠٠ جولدن (\*) . واستطاع بهذا المال أن يجمع عشرة آلاف من الرجال الراغبين أشد الرغبة في المغامرة والنهب ، ليس منهم من يتردد في أن يحطم حربته فوق رأس البابا ، ويقال إن منهم من كان يحمل جبلاً معقوداً ليشنقه به (٢٢) . وفي نوفمبر من عام ١٥٢٦ عبر هذا الجيش المرتجل الجبال وزحف على بريشيا ، وجازى ألفونسو دوق فيرارا البابوية على ما بذلته من جهود متكررة لخلاعه ، بأن أرسل إلى فراندسبرج أربعة من أقوى مدافعه . وحدثت مع الغزاة مناوشة بالقرب من بريشيا أصيب فيها جيوفني دلي باندي بالرصاص ، ومات في مانتوا في ٣٠ نوفمبر وهو في السادسة والعشرين من عمره . ولم يبق بعد وفاته من يمنع دوق أربينو من أن يفعل أي شيء يريد .

(\*) عملة ألمانية وهولندية قديمة تعادل الفلورين ، أي ما يقرب من نصف جنيه . ( المترجم ) .

وعبر غوغاء فرندسبرج نهر الپو كما فعل نچوفنى ونهبوا حقول لمباردى الغنية نهباً باغ من شدته أن السفراء الإنجليز وصفوا أرضه بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بأنها « أشقى أرض وجدت في العالم المسيحي في وقت من الأوقات » (٣٣) . وكان قائد جيش الإمبراطور وقتئذ في ميلان هو شارل دوق بوربون ، الذى عين وقتئذ قائداً أعلى للجيش الفرنسى لما أظهره من البسالة في مارنيانو . وكان شارل هذا قد خرج على فرانسيس حين حرمة أم الملك ، حسب اعتقاده ، من أراضيها الخاصة ؛ فانحاز إلى الإمبراطور ، وكان له نصيب في هزيمة فرانسيس في بافيا ، وعين دوقاً لميلان . وأراد وقتئذ أن يجند جيشاً لمساعدة شارل ويؤدى له مرتباته ، ففرض من الضرائب على أهل ميلان ما كاد يقتلهم قتلاً ، وكتب إلى الإمبراطور يقول إنه استنزف دماء المدينة ؛ وكان جنوده الذين أسكنهم في بيوت أهلها لا يمتأون بضايقتهم بالسرقة ، والمعاملة الوحشية ، وهتك الأعراس ، مما حمل كثيرين منهم على أن يشنقوا أنفسهم أو ينتحروا بإلقاء أنفسهم من الأماكن العالية في الشوارع (٣٤) . وفي أوائل شهر فبراير من عام ١٥٢٧ خرج بوربون على رأس جيشه من ميلان ، وضمه إلى جيش فرندسبرج بالقرب من بيانشندسا . واتجه هذا الجيش المختلط الذى بلغت عدته الآن ٢٢٠٠٠ جهة الشرق متبعاً طريق إيميليا ، متجنباً المدن الحصينة ، ولكنه ينهب كل ما يجده في طريقه ويترك البلاد وراءه قاعاً صفصفاً .

ولما تبين كلمنت أن ليس لديه من الجنود ما يكفى لصدد الغزاة ، توسل إلى لانوى أن يعمل لعقد هدنة . وجاء هذا الحاكم من نابلى ووضع شروط هدنة مدتها ثمانية أشهر : وتتضمن أن يقف كلمنت وكولنا الحرب ويتبادلا ما فتحاه من الأرضين . ودفع البابا ستين ألف دوقة يرشوها بجيش فرندسبرج حتى يبقى بخارج الولايات البابوية . ورأى كلمنت أنه أوشك على الإفلاس ، وظن أن فرندسبرج وبوربون سيزاعيان شروط الاتفاق الذى

وقعه نائب الإمبراطور بشرف وأمانة ، فخنض جيش رومة إلى ثلثمائة جندي لا أكثر . غير أن جنود بوربون السارقين النهابين ثاروا غضابا حين سمعوا بشروط الهدنة . ذلك أنهم ظلوا أربعة أشهر يقاسون آلاف الصعاب وكل ما يأملونه هو نهب رومة ؛ وكانت كثرتهم الغالبة ترتدي الآن أسملا بالية ، وتمشى حافية الأقدام ؛ وكانوا كلهم جياعاً ولم يتناول منهم أحد مرتبه . ولهذا أبوا أن يشتروا بمبلغ تافه لا يزيد على ستين ألف دوقة ، يعرفون أنه لن يصل إلى جيوبهم منه إلا جزء قليل . وإذا كانوا يخشون أن يوقع بوربون شروط الهدنة ، فقد حاصروا خيمته ، ورفعوا عقيرتهم قائلين : « الأجور ! الأجور ! » واختفى بوربون في مكان آخر ، ونهب الجند خيمته ، وحاول فرندسبرج أن يهادى ثورة غضبهم ، ولكنه أصابته نوبة تشنجية في أثناء هذه المحاولة . ولم يشترك بعدها في الحملة حتى مات بعد عام واحد من ذلك الوقت . وتولى بوربون القيادة العليا على شرط أن يزحف على رومة . وفي التاسع والعشرين من مارس بعث برسالة إلى لانوى وكلمنت يبلغهما أنه لا يستطيع كبح جماح جنوده ، ولهذا فهو مرغم على نقض الهدنة .

وأدركت رومة أخيراً أنها هي اللفريسة الضعيفة المقصودة . وفي يوم خميس الصعود ( ٨ إبريل ) بينا كان كلمنت يمنح بركته لجموع محتشاة تبلغ عشرة آلاف نفس أمام كنيسة القديس بطرس ، إذ صعد شخص متعصب مشهور ، لا يلبس إلا ميدعة من الجلد ، فوق تمثال القديس بولص وصاح في وجه البابا قائلاً : « أيها النغل اللائط ! إن رومة ستدمر بسبب خطاياك ؛ فكفر عن ذنوبك وارجع عن غيبك ! وإذا لم تصدقني فستري بعد أربعة أشهر ما يحل بها . » وفي مساء يوم عيد الفصح أخذ هذا الزاهد الناسك - بارتوليو كاروسى Bartolommeo Carosi الذى يطلق عليه اسم برندانو Brandano - يطوف بالشوارع وهو يصيح : « رومة ، كفرى

عن ذنوبك ! لانهم سيعاملونك كما عامل الله سدوم وعمورة ، (٣٥) .

وأرسل بوربون إلى كيمنت يطلب ٢٤٠,٠٠٠ دوقة ، ولعله كان يأمل أن يرضى جنوده بهذه الزيادة الكبيرة في ماله ؛ فرد عليه كلمنت بأنه عاجز كل العجز عن جمع هذه القدية الضخمة . وزحف الجحافل اللجب إلى فلورنس ، ولكن جوتشيارديني دوق أرينو . ومركز سالتسو كانا قد حشدوا من الجنود ما يكفي للدفاع عن حصونها دفاعاً قوياً ؛ ولهذا ارتدت تلك الجحافل خاسرة ، واتخذت طريقها إلى رومة . ووجد كلمنت أن الهدنة غير كفيلة بنجاته ، فانضم إلى حلف كنيك المناوي لشارل ، وطلب المعونة من فرنسا ، ودعا أغنياء رومة أن يسهموا في جمع المال اللازم للدفاع عنها ، فكانوا أشحاء في الاستجابة إلى رغبته ، واقترحوا عليه طريقة أجدى من هذه وهي بيع القلائس الحمر (\*) . ولم يكن كلمنت قد باع المناصب بالمال إلى جماعة الكرادلة ، ولكنه أخذ بهذا الاقتراح حين وصل جيش بوربون إلى فيربو التي لا تبعد عن رومة بأكثر من اثنين وأربعين ميلاً ، وباع ستة من هذه المناصب . وقبل أن يؤدي المرشحون المال أبصر البابا من نوافذ الفاتيكان الجحافل الجياع تتقدم مجتازة حقول نيرون ، وكان لديه في ذلك الوقت أربعة آلاف جندي يدفعون عن رومة ضد عشرين ألفاً من المهاجمين .

وفي السادس من مايو اقتربت جموع بوربون من الأسوار مستترة بالضباب ، ولكنها صدمت عنها بوابل من الرصاص ، وأصيب بوربون نفسه برصاصة قضت عليه لساعته تقريباً . ولكن هذا لم يمنع المهاجمين من أن يعاودوا الهجوم ، لأنهم لم يكن أمامهم غير واحدة من اثنين ، فإما أن يستولوا على رومة وإما أن يموتوا جوعاً . واتفق أن عثروا على موقع ضعيف في خط الدفاع ، فاخترقوه عنوة ، وتدفعوا إلى داخل المدينة .

(\*) قلائس الكرادلة - أي بيع مناصبهم بالمال . ( المترجم )

وحارب حرس رومة ، والحرس السويسرى ببسالة ، ولكنهما أبيدا عن  
آخرهما . وفر كلمنت ، ومعظم الكرادلة المقيمين فى المدينة ومئات من  
الموظفين إلى قلعة سانت أنجيلو حيث حاول تشيلينى وغيره أن يقفوا زحف  
الغزاة بنار المدفعية . ولكن الغزاة دخلوا المدينة من اتجاهات مختلفة أوقعت  
الارتباك فى صفوف المدافعين ، فمن المهاجمين من سترهم الضباب ، ومنهم  
من اختلطوا بالفارين اختلاطاً لم تستطع معه مدافع القاعة أن تضربهم من  
غير أن تقتل معهم الجاهل الذى فقدت قوتها المعنوية ، وما لبثت المدينة أن  
أصبحت تحت رحمة الغزاة .

ولما اندفع هؤلاء فى شوارعها أخذوا يقتلون كل من واجهوه فى  
طريقهم دون أن يفرقوا بين الرجال ، والنساء ، والأطفال . واشتد تعطشهم  
إلى سفك الدماء ، فدخلوا مستشفى سانتو اسپيرتو ( الروح القدس ) وملجأ  
اليتامى فيه ، وذبحوا كل من فيها من المرضى كلهم تقريباً . ثم انجهوا إلى  
كنيسة القديس بطرس ، وذبحوا من لجأوا إلى هذا الحرم المقدس ، ونهبوا  
بعده كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الكنائس والأديرة ، وحولوا  
بعضها إلى اسطبلات لحيولهم ، وقتلوا مئات من القساوسة ، والرهبان ،  
والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وجردت كنيسة القديس بطرس والفاثيكان  
من أعلاهما إلى أسفلهما من كل ما فيها ، وربطت الخيول فى حجرقة  
رفائيل (٣٦) . ونهب كل بيت فى رومة وحرقت الكثير منها عدا اثنين لا أكثرهما  
قصر الكانتشيليريا Cancelleria الذى كان يشغله الكردنال كولنا ، وتصر  
آل كولنا الذى لجأت إليه إزبلادست ، ومعها بعض أغنياء التجار ، ونفح  
هؤلاء زعماء الغوغاء بخمسين ألف دوقة لينجوم من الهجوم ، ثم سمحوا  
لآلاف من اللاجئين أن يحموا وراء الأسوار . وأدى كل قصر من القصور  
القديمة نظير حمايته ، ولكن هذه القصور نفسها هاجمتها جماعات أخرى  
واضطرت أن تفتدى نفسها من جديد . وقد حدث فى معظم البيوت أن

اضطر من فيها جميعاً إلى افتداء أنفسهم بمبلغ محدد ؛ فإذا لم يوفوا به كله تعرضوا لألوان من العذاب ، وقتل منهم آلاف ، وأتى بالأطفال من النوافذ العليا ، لكي يضطر آباؤهم إلى إخراج ما اكتنزوه من المال وأنخفوه ، حتى غصت الشوارع بالقتلى . وشهد الثرى دومينيكو صاحب الملايين بعينيه أبنائه يقتلون ، وابنته مهتك عرضها ، وبيته يحرق ، ثم انتهى الأمر بقتله هو نفسه . ويقول بعض الواصفين : « ولم تكن في المدينة كلها نفس فوق الثالثة من العمر لم تضطر إلى أن تبتاع سلامتها بالمال » (٣٧) .

وكان نصف الغوغاء المنتصرين من الألمان ، لم يكن يشاك معظمهم في أن البابوات والكرادلة لصوص ، وأن ثروة الكنيسة في رومة سرقة ونهب من الأمم ، وفضيحة للعالم . وأرادوا هم أن يخففوا من هذه الفضيحة ، فاستولوا على جميع ما في الكنائس من ثروة منقولة بما فيها من الأواني المقدسة ، والتحف الفنية ، وخرجوا بها ليذبيوها أو يفتدوا بها أنفسهم ، أو يبيعوها . أما المخلفات المقدسة فقد تركوها مبعثرة على الأرض . وارتدى أحد الجنود الأثواب البابوية ، ولبس غيره قلانس الكرادلة ، وقبلوا قدميه ، ونادى جماعة من الغوغاء في الفاتيكان بلوثر بابا . وكان أتباع مذهب لوثر من الغزاة يجدون لذة خاصة في نهب أموال الكرادلة ، وتقاضي فديات عالية منهم نظير تركهم أحياء ، وتعليمهم مراسم دينية جديدة . ويقول جوتشيارديني إن بعض الكرادلة « أركبوا دواب قدرة حقيرة ، وأدبرت وجوههم نحو ذيوها وعليهم ملابس مناصبهم وشاراتها ، وطاف الغوغاء ببعضهم في شوارع المدينة معرضين لأقسى ضروب السخرية والاحتقار ، وعذب بعض من لم يستطيعوا جمع كل ما طلب إليهم من مال الفداء تعذيباً قسى على حياتهم في التو والساعة أو بعد أيام قلائل » (٣٨) . وأنزل أحد الكرادلة في قبر من القبور وهدد بأنه سيدفن فيه حياً إن لم يأت بالفدية في زمن محدد ؛ وجاء هذا المال في اللحظة الأخيرة (٣٩) . ولم يلق الكرادلة الألمان ، الذين ظنوا

أنفسهم بمنجاة من شر أبناء وطنهم ، خيراً مما لقيه غيرهم . وهتكت أعراض  
الراهبات والمحصنات من النساء في بيوتهن أو في الأديرة نفسها ، أو حمان  
ليشبع فيهن جماعات من الجند شهواتهم بوحشية في أماكنهم (٤٠) . وهوجمت  
النساء على أعين أزواجهن أو آبائهن ؛ واستبد اليأس بكثيرات من الفتيات  
بعد هتك أعراضهن فأغرقن أنفسهن في نهر التير (٤١) .

وكان الدمار الذي حاق بالكتب ، والمخطوطات ، ونقائس الفن يجلب  
عن الوصف . واستطاع فليبرت Philibert ، أمير أورنج Prince of Orange  
الذي تولى وقتئذ قيادة هذه الحشود المختلة النظام ، أو ما يشبه قيادتها ،  
استطاع هذا الأمير أن ينقذ مكتبة الفاتيكان باتخاذها مقراً لقيادته ، ولكن  
كثيراً من مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة التهمتها النيران ، وضاعت بذلك  
كثير من المخطوطات القيمة . ونهبت كذلك جامعة رومة وبدد شمل موظفيها .  
وشهد العالم كولوتشي بيته يحترق عن آخره هو وما جمعه فيه من المخطوطات  
وروائع الفن . وأبصر الأستاذ بالدوس تعليقاته الجديدة على كتاب بلني تتخذ  
لإشعال نار في معسكر الناهبين . وفقد الشاعر ماروني Marone قصائده ،  
ولكنه كان أسعد حظاً من غيره ؛ أما الشاعر باولو بمباستي Paolo Bombasti  
فقد قتل ؛ وعذب العالم كرسستوفور مارتشيلو Cristoforo Marcello بنزع  
أظافر يديه ظفراً بعد ظفر ، أما الفنانان بيرينو دل فاجا Perino del Vaga ،  
وماركنتوريو ريمندي Marcantorio Raimoudi وكثيرون غيرهما فقد عذبوا  
وجردوا من كل ما يمتلكون ، وتفرق شمل مدرسة رفاثيل فلم يبق لها وجود .  
وليس من المستطاع إحصاء عدد من قتلوا في هذه الكارثة المدممة ؛  
وكل ما نستطيع أن نقوله أن ألبي جيثة ألقيت في نهر التير من شاطئه الذي  
تقع عليه الفاتيكان ؛ وأن ٨٠٠٠ ر ٩ من الموتى دفنوا ؛ وما من شك في أن  
عددًا آخر كبيراً من الناس قد قتل . وتقدر قيمة المنهوبات تقديراً متواضعاً  
بأكثر من مليون دوقة ، وقيمة ما دفع من مال الفداء بثلاثة ملايين ، وقدر

كلمنت مجموع الخسائر بعشرة ملايين ( ١٢٥٠٠٠٠٠٠ ر ١٢٥٠٠٠٠٠٠ دولار ) (٤٣) .  
ودام السلب والنهب ثمانية أيام ، كان كلمنت في خلالها يشاهده بعينه  
من أبراج سانت أنجيلو ؛ ويتوسل إلى الله كما توسل إليه أبوب المعذب :  
« فلماذا أخرجتني من الرحم ، كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين » (٤٤) !  
وامتنع وقتئذ عن حلق لحيته ، فلم يحلقها بعد ذلك أبداً ، وظل سجيناً في  
القلعة من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وهو يأمل أن تأتيه النجاة  
من جيش دوق أربينو ، أو من فرانسيس ، أو هنري الثامن . وسر شارل ،  
وكان لا يزال وقتئذ في أسبانيا ، عند سماعه بسقوط رومة ، ولكنه روع  
حين ترامت إليه أنباء وحشية الناهبين ، وتنصل من تبعة هذه المنكرات ،  
ولكنه أفاد كل الإفادة من ضعف البابا وخذلانه . وفي السادس من شهر  
يونيه أرغم ممثلوه - وقد يكون ذلك على غير علم منه - كلمنت بأن يوقع  
شروط سلم مهينة ، وافق البابا بمقتضاها على أن يؤدي لهم وللجيش  
الإمبراطوري ٤٠٠ ر ٠٠٠ دوقة ، وأن يسلم إلى شارل مبادئ بياتشتدسا ،  
وبارما ، ومودينا ، وقصور أستيا ، وتشفتيتا فيتشيا ، وسانت أنجيلو نفسها ؛  
وأن يبقى سجيناً في هذه القلعة الأخيرة حتى يسلم المائة والخمسين ألفاً الأولى  
من هذا المبلغ ، ثم ينقل بعدئذ إلى جايتا Gaeta أو ناپلي ، حتى يقرر اشارل  
نفسه مصيره . وسمح لجميع من كانوا في قلعة سانت أنجيلو بمغادرتها ما عدا  
كلمنت وثلاثة عشر من الكرادلة ، الذين صحبوه إليها ، وعهد إلى الجنود  
الأسبان والألمان بحراسة الحصن ، وأبقوا البابا على الدوام تقريباً محصوراً  
في جناح ضيق منه ، وصفه جوتشيارديني في ٢١ يونيو بقوله : « إنهم  
لم يتركوا له فيه من المتاع ما يساوي عشرة اسكودوات (\*) . وأسلم كل  
ما كان قد أخذه معه في فراره من الفضة والذهب إلى أسريه ليوفى بذلك  
مائة ألف دوقة من مال الفداء .

( \* ) عملة إيطالية كانت موجودة من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر في إيطاليا وصقلية  
تيمتها أقل قليلاً من الدولار الأمريكي . ( المترجم )

وفي هذه الأثناء استولى ألفنسو صاحب فرارا على رچيو ومودينا اللتين كان لفرارا فيهما حقوق من أقدم الأزمنة ، كما استولت البندقية على راقنا . وطردت فلورنس آل ميديتشي للمرة الثالثة وأعلنت يسوع المسيح ملكا على الجمهورية الجديدة ، وبدأ أن صرح البابوية كله مادياً وروحياً أخذ في الانهيار ، وحركت مأساة هذا الخراب أسى الناس جميعاً حتى الذين كانوا يشعرون بأن خيانات كلمنت ، وآثام البابوية ، وشره حكومتها ، وترف رجال الدين ، ومظالم رومة ، كانت كلها خليقة ببعض العقاب ، وسمع سادوليتو ، وهو آمن مطمئن في كارپنتراس Carpentras بسقوط رومة فروعه النبأ ، وتحسر على مضي تلك الأوقات الحلوة الهادئة التي جعلها يجمو ، وكستجليونى ، وإزبلا ، ومائة من العلماء ، والشعراء ، وأنصار العلم والفن ، موطناً لها حتى بلغا فيها ذروة مجدهما . وكتب إرازمس لسادوليتو يقول : « لم تكن رومة كعبة الدين المسيحى ، ومهد النفوس النبيلة ، وموطن الأداب والعلوم والفنون فحسب ، بل كانت أيضاً أم الأمم . وكم من الناس كانت أعز عليهم وأحلى لهم ، وأعظم قيمة لديهم ، من بلادهم نفسها !... . إلا إن هذا الخراب لم يكن فى الحقيقة خراب بلدة واحدة ، بل كان خراب العالم أجمع » (٤٦) .

## الفصل الثامن

شارل المنتصر : ١٥٢٧ - ١٥٣٠

فشا الطاعون في رومة عام ١٥٢٢ وأنقص عدد سكانها إلى ٥٥٠٠٠٠ ،  
سوما من شك في أن حوادث القتل ، والانتحار ، والهرب في أثناء الحرب  
تقد أنقصتهم أيضاً إلى أقل من ٤٠٠٠٠ في عام ١٥٢٧ . وفي شهر يوليه من  
هذا العام الأخير جاء الطاعون مرة أخرى في أشد شهور العام قيظاً ،  
وانضم إلى القحط والجحافل الخربة فأصبحت رومة مدينة الرعب ، والفزع ،  
والخراب . وامتألت الكنائس والشوارع مرة أخرى بيجث الموتى ، ترك  
الكثير منها يتعفن في الشمس ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من الرمم  
والأقدار قوية إلى حد لم يطقه السجنانون والمسجونون ففروا من أسوار القلعة  
إلى حجراتهم ، وحتى في داخل الحصن مات الكثيرون من الوباء ، وكان  
من بينهم نخدم البابا . ولم يفرق الطاعون بين الأهلين والغزاة . فمات من  
الألمان ٢٥٠٠ في رومة في ٢٢ يوليه سنة ١٥٢٧ ، وأهلك الزهري ، والملاريا ،  
وسوء التغذية نصف عدد الجيش .

وشرح أعداء شارل يفكرون جدياً في إنقاذ البابا . وكان هنري الثامن  
يخشى ألا يمنحه الخبر السجين إذناً بتطبيق كثيرين الأرغونية ، فأرسل الكردينال  
ولزي إلى فرنسا ليفاوض فرانسيس في الوسائل التي تتبع لإطلاق سراح  
كلمنت ، وفي أوائل شهر أغسطس عرض الملكان على شارل الصلح  
و ٢,٠٠٠,٠٠٠ دوقية على شرط أن يطلق سراح البابا والأمراء الفرنسيين ،  
وأن ترد الولايات البابوية إلى الكنيسة . فلما رفض شارل هذا العرض ،  
عقد فرانسيس وهنري معاهدة أمين ( ١٨ أغسطس ) التي تعهدا فيها بمحاربة  
شارل ، وما لبثت البندقية وفلورنس أن انضمتا إلى الحلف الجديد ،

واستولت القوات الفرنسية على جنوى وباثيا ونهببت المدينة الثانية نهياً يكاد يكون تاماً ، ولا يقل عما أوقعه الجيش الإمبراطوري برومة ؛ ونحشيت مانتوا وفرارا الفرنسيين القريبين منهما أكثر مما كانتا تخشيان شارل البعيد عنهما ، فانضمتا أيضاً إلى الحلف ؛ غير أن القائد الفرنسي لوترك Lautrec عجز عن دفع رواتب جنده ولم يجرؤ على الزحف بهم على رومة .

وأمل شارل في أن يسترد مكانته في العالم المسيحي الكاثوليكي ، وأن يهدئ من تحمس الحلف المطرد الزيادة ، فوافق على إطلاق سراح البابا مشروطاً ألا يقدم كلمنت أية مساعدة إلى الحلف ، وأن يدفع من فوره إلى الجيش الإمبراطوري في رومة ١١٢,٠٠٠ دوقه ، وأن يقدم الرهائن ضماناً لحسن سلوكه . وجمع كلمنت المال اللازم ، ببيع مناصب الكرادلة ؛ ومنح الإمبراطور عشر إيراد الكنيسة في مملكة نابلي ، وفي السابع من ديسمبر ، غادر كلمنت سانت أنجيلو بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر وتخفى في زي خادم ، واتخذ سبيله وهو ذليل خارج رومة إلى أرفينو ، لا يشاك من يراه في أنه رجل محطم .

وفي أربينو أسكن قصرأ مخرباً نخر سقفه ، وتعرت جدراناه وتشققت ، نصفر الريح في جوانبه . ولما قدم عليه السفراء الإنجليز ليحصواوا هنرى على طلاق زوجته ، وجدوه مكوماً في الفراش ، وقد اختفى نصف وجهه الممتقع الضامر الناحل تحت لحية طويلة خشنة . وفي هذا القصر قضى البابا الشتاء ، ثم نقل بعده إلى فيتيربو . وفي السابع عشر من يناير جلا الجيش الإمبراطوري عن رومة بعد أن حصل من شارل على كل ما يستطيع الحصول عليه منه ، لأنه كان يخشى فتك الطاعون ، واتخذ هذا الجيش سبيله جنوباً إلى نابلي . وزحف لوترك وقتئذ يحيشه جنوباً ، مؤملاً أن يجاصر نابلي . ولكن الملاريا كانت قد أهلكت عدداً كبيراً من رجاله ، وقضى هو ونجبه ، وتقهقرت جيوشه المختلة النظام نحو الشمال ( ٢٩ أغسطس .

سنة ١٥٢٨ ) . وفقد كلمنت كل أمل في معونة الحلف ، فعرض على شارل أن يستسلم له استسلاماً تاماً ؛ وفي السادس من شهر أكتوبر سمح له بالعودة إلى رومة . وروعه أن رأى أربعة أخماس بيوتها قد هجرها أصحابها ، وآلاف المباني قد تخربت ؛ وذهل الناس إذ رأوا ما أحدثه الغزو الذي دام سبعة أشهر في عاصمة العالم المسيحي .

ويبدو أن شارل فكر في وقت ما في خلع كلمنت ، وضم الولايات البابوية إلى مملكة نابلي ، واتخاذ رومة عاصمة لإمبراطوريته ، وأنزل البابا منزله الأساسية وهي أن يكون أسقف رومة ونخاضعاً للإمبراطور (٤٧) . ولكن هذا إذا حدث كان من شأنه أن يدفع شارل إلى أحضان اللوثريين في ألمانيا ؛ ويوقد نار الحرب الأهلية في أسبانيا ، ويشتر فرنسا ، وإنجلترا ، وبولندا ، والمجر لمقاومته بجميع قواها المتحدة . ولهذا تخلى عن ذلك المشروع ، واتجه إلى جعل البابوية حليفته التي تعتمد عليه ، وعونه الروحي في تقسيم إيطاليا بينهما . ولهذا عقد مع البابا معاهدة برشالونة ( ٢٩ يونيو سنة ١٥٢٩ ) التي نزل فيها البابا عن أشياء كثيرة هامة : منها أن يرد للكنيسة الإمارات التي انتزعت منها ، وأن يعيد بالسياسة أو بالقوة أقارب البابا الميديتشين في فلورنس ، وحتى فيرارا نفسها وعد أن يعيدها إلى البابا . ووافق البابا في نظير هذا على أن يمنح شارل ملك نابلي بصفة رسمية ، وأن يجيز للجيش البابوية حرية المرور في الولايات البابوية ، وأن يلتقي بالإمبراطور في بولونيا في العام التالي ليثبتا قواعد الصلح وينظما إيطاليا .

وبعد قليل من ذلك الوقت التقت مرجريت عممة شارل ونائبته في حكم الأراضي الوطيئة باويزة أميرة ساقوى ، وأم فرانسس . واستعانتا بعدد من السفراء والمندوبين ، ووضعنا صيغة معاهدة كبريه ( ٣ أغسطس سنة ١٥٢٩ ) بين الإمبراطور والملك . وبمقتضى هذه المعاهدة أطلق شارل الأمراء الفرنسيين نظير فدية مقدارها ١,٢٠٠,٠٠٠ دوقه ؛ وتخلي فرانسس باسم

فرنسا عن جميع مطالبه في إيطاليا ، وفلاندرز ، وآرتوا ، وأراس ، وتورناى (٤٨) . وهذا ترك حلفاء فرنسا في إيطاليا تحت رحمة الإمبراطور .

ثم التقى شارل وكلمنت في بولونيا في الخامس من نوفمبر سنة ١٥٢٩ ، وكان كلاهما الآن مقتنعاً بأنه في حاجة إلى الآخر . ومن أغرب الأشياء أن هذه كانت أول زيارة لإيطاليا يقوم بها شارل ؛ ذلك أنه فتح تلك البلاد قبل أن يراها . ولما ركع أمام البابا في بولونيا ، وقبل قدم الرجل الذى مرغه فى الثرى ، كان ركوعه هذا هو المرة الأولى التى أبصر فيها كلا الرجلين صاحبه - الرجل الذى يمثل الكنيسة فى عهد اضمحلالها ، والرجل الذى يمثل الدولة الحديثة الناشئة المنتصرة - وفارق كلمنت جميع كبريائه ، وغفر جميع ما لحقه من إساءات ؛ ولم يكن من ذلك بد ؛ فلم يكن فى وسعه أن يتطلع إلى عون فرنسا ؛ وكان لشارل جيش لا يقاوم فى جنوبي إيطاليا وشمالها ، ولم يكن يستطيع إعادة فلورنس لآل ميديتشى دون مساعدة الجيوش الإمبراطورية ؛ وكان فى حاجة إلى مساعدة الإمبراطور ضد لوثر فى ألمانيا ، وضد سليمان القانونى فى الشرق . ووقف شارل وقتئذ وقفة الرجل الكريم الحضيف : فقد استمسك بجوهر شروط اتفاق برشلونة الذى عقده حين لم تكن له هذه القوة التى لا تقاوم ، فأرغم البندقية على أن تعيد كل ما استولت عليه من أملاك الولايات البابوية ؛ وسمح لفرانتشيسكو ماريا اسفوردسا أن يحتفظ بميلان المحرقة تحت رقابة الإمبراطور إذا أدى نظير ذلك غرامة حربية كبيرة ؛ وأقنع كلمنت بأن يسمح لفرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى الجبان أو الغادر بأن يحتفظ بأربينو . وغفر لألفنسو انضمامه القريب العهد إلى فرنسا ، وكافأه على ما قدم من معونة أثناء الزحف على رومة بأن سمح له بالاحتفاظ بدوقيته على أن تكون إقطاعية بابوية ، وأعطاه مودينا ورجيو إقطاعيتين من قبل الإمبراطورية ؛ وأدى ألفنسو للبابا فى نظير ذلك مائة ألف دوقية كان البابا فى أشد الحاجة إليها . وأراد شارل أن يوطد دعائم هذه التسويات

كلها فدعا جميع الإمارات إلى الانضمام إلى اتحاد من جميع أجزاء إيطاليا للدفاع المشترك عنها ضد الهجوم الخارجي - ما عدا هجوم شارل نفسه - وهي الوحدة التي سعى إليها دانتى عند الإمبراطور هنرى السابع ، وپترارك عند الإمبراطور شارل الرابع ؛ وها هي ذى الآن تتحقق بالخضوع المشترك إلى دولة أجنبية . وبارك كلمنت هذا الاتفاق كله ، وتوج شارل إمبراطوراً بأن وضع على رأسه تاج لمباردى الحديدى ، وتاج الإمبراطورية الرومانية المتدسة الإمبراطورى البابوى ( ٢٢ - ٢٤ فبراير سنة ١٥٣٠ ) .

وسجل حلف البابا والإمبراطور بدماء فلورنس . وتفصيل ذلك أن كلمنت اعزم أن يعيد إلى أسرته ما كان لها من سلطان فدفع ٧٠٠٠٠٠ دوقه إلى فليبرت أمير أورنج (الذى أبقاه سجيناً) ، لينشئ بها جيشاً يجتاح به جمهورية الأثرياء التي أقيمت هناك في عام ١٥٢٧ . وسير فليبرت للقيام بهذه المهمة عشرين ألفاً من الجنود الألمان والأسبانيين ، الذين اشترك الكثيرون منهم في نهب رومة (٤٩) . واحتلت هذه القوة بستويا وبراتو Prato في شهر ديسمبر سنة ١٥٢٩ وضربت الحصار على فلورنس . وأراد أهل المدينة البواسل أن يعرضوا المهاجمين لنيران المدفعية الفلورنسية ، فدمروا كل بيت ، وحديقة ، وجدار ، في مسافة تمتد ميلاً كاملاً حول حصون المدينة ؛ وترك ميكل أنجيلو أعمال الحفر التي كان يقوم بها في قبور آل ميديتشي ليبنى الحصون والأسوار أو يعيد بناء ما كان قد تهدم منها . ودام الحصار سبعة أشهر قاست فيها المدينة الأهوال ، فقد شح فيها الطعام حتى بيع القار أو التلط بما يعادل اثني عشر دولاراً ونصف دولار (٥٠) . وسلمت الكنائس آنيتها ، وسلم الأهلون صحافهم ، وتبرعت النساء بحليهن ، كى تحول كلها إلى نقود لا يتباع المون أو الأسلحة . وأخذ الرهبان الملتهبون وطينة أمثال الراهب . بنيديتو دا فويانا Benedetto Da Foiana يرفعون روح الأهلين المعنوية بعظاتهم الدينية . وفر رجل شجاع من أهل المدينة يدعى فرانتشيسكو فيروتشى

إلى خارجها ، ونظم قوة قوامها ثلاث آلاف رجل هاجم بهم المحاصرين .  
لكنه هزم ونحسر من جنوده ألنى رجل ، وأمر هو نفسه ، وجرى به أمام  
فريديسيو مارمليدى *Fadrizio Marmalidi* وهو قائد من أهل كلابريا كان  
على رأس الخيالة فى جيش الإمبراطور . وأمر مارمليدى أن يوثق بفيروتشى  
*Ferucci* مقبوضاً عليه أمامه ، وأخذ يدفع الخنجر فى صدره حتى فارق  
الحياة (٥١) . وأخذ القائد الذى استأجرته فلورنس ليتولى قيادة المدافعين عنها ،  
وهو مالاتستا بجليوتى ، يتفاوض لعقد اتفاق غادر مع المحاصرين ، فأدخلهم  
المدينة ، وصوب مدافعه نحو الفلورنسيين . واضطرت المدينة بتأثير الجوع  
واختلال النظام إلى التسليم ( ١٢ أغسطس سنة ١٥٣٠ ) .

وأصبح ألسندرو ده ميديتشى دوقاً على فلورنس وجلل أسرته العار  
بما ارتكبه من أعمال النهب وما أظهره من قسوة ، فعذب مئات من الذين  
حاربوا دفاعاً عن الجمهورية ، أو نفوا منها ، أو قتلوا تقتيلاً . وأرسل  
الراهب بنيديتو إلى كلمنت ، فأمر هذا بسجنه فى قاعة سانت أنجيلوا ،  
وفىها سجن الراهب حتى هلك من الجوع كما تقول إحدى الروايات التى  
لا يوثق بصحتها (٥٢) . وحل مجلس السيادة الذى كان يتولى حكم المدينة ،  
وأطلق من ذلك الوقت اسم بالاتسو فيتشيو *Palazzo Vecchio* أى قصر  
فيتشيو ( على بالاتسو دلا سنيوريا *Palazzo della Sagnoria* أى قصر  
السيادة ) ؛ وأنزل الناقوس الضخم العظيم الذى يزن أحد عشر طناً والمسمى  
بالبقرة *La Vacca* ، والبذى ظل أجيالاً طوالاً يدعو الناس من البرج الجميل  
إلى الاجتماع - أنزل هذا الناقوس من موضعه ، وحطم تحطياً ؛ « حتى  
لا تستمع بعدئذ إلى صوت الحرية العذب » كما يقول أحد كتاب اليوميات  
المعاصرين (٥٣) .

## الفصل التاسع

### كلمت التاسع والفنون

تؤكد الطريقة التي عامل بها البابا فلورنس تدهور أحوال آل ميديتشي ،  
أما ما بذله من الجهود لإعادة رومة إلى سابق عهدها فيكشف عن جنوة  
من العبقرية الإدارية وعن تقدير للجمال كانا من أسباب عظمة تلك الأسرة .  
وقد صوره وقتئذ سيباستيانو دل بيومبو ، وكان قد صوره من قبل في عهد  
نصوجه ، في صورة شيخ طاعن في السن ، حزين مكتئب ، غائر العينين ،  
أبيض شعر اللحية ، يوزع البركات . ويبدو أن الآلام طهرته وأنها قوته  
إلى حد ما ، فقد أقدم على بذل جهود قوية لحماية إيطاليا من الأسطول التركي  
الذي كان وقتئذ يسيطر على شرقى البحر المتوسط ، فحصن أنكونا ،  
وأسكولى ، وفانو ، وحصل على نفقات هذا التحصين بأن حمل مجمع  
الكرادلة في الحادى والعشرين من يونية سنة ١٥٣٢ على أن يفرض ضريبة  
قدرها خمسون في المائة من جميع إيرادات رجال الدين الإيطاليين ومنهم الكرادلة  
أنفسهم ، وذلك رغم معارضة الكرادلة (٥٤) . واستعان ببيع المناصب الدينية  
وبغيره من الوسائل فجمع المال اللازم لإعادة ما تخرب من الكنائس ،  
وجامعة رومة ، والعودة إلى مناصرة العلوم والفنون ، واتخذ الوسائل  
الكمفيلة بضمان وصول الحبوب إلى المدينة على الرغم من غارات قراصنة  
البربر على السفن بالقرب من صقلية ، وبذلك لم يمض إلا قليل جداً من  
الوقت حتى عادت رومة إلى القيام بواجبها بوصفها عاصمة العالم الغربى .

وكانت المدينة لا تزال غنية بالفنانين ، فقد جاء إليها كرادسا Caradossa  
من ميلان ، وتشيليني من فلورنس ، لكى يرفعا فن الصياغة إلى الذروة

التي بلغها في عهد النهضة ، وقد شغل هذان الفنانان وكثيرون غيرهما أوقاتهم في عمل ورود ذهبية ، وسيوف شرف يهدىها البابا في المناسبات المختلفة ، وآنية لمذابح الكنائس ، وعصى من فضة لكبار رجال الكنيسة وللمواكب الدينية ، وأختام للكرادلة ، وتيجان ونحوها للبابوات . وصنع فاليريوبلي من أهل فيتشندسا Vicenza لكلمنت علبة فخمة من الباور الصخرى نقشت عليها مناظر من حياة المسيح ؛ وهي الآن من أثنى التحف المحفوظة في قصر بيتي ، وقد أهديت إلى فرانسس الأول بمناسبة زواج ابنه من كترين الميديتشية .

وبدئ العمل من جديد في زخرفة حجرات الفاتيكان في عام ١٥٢٦ . وكانت أعظم الرسوم التي تمت في عهد ولاية كلمنت هي التي صورت في قاعة قسطنطين ؛ فيها رسم جيوليو رومانو شيخ الصليب ، وواقعة جسر ملفي ؛ ورسم فرنشيسكو بني صورة تعمير قسطنطين كما رسم رفائلو دل كلي Rafaello del Colle صورة رومة مهداة إلى البابا - ملفتر من قسطنطين .

وكان أعظم المصورين في رومة بعد ميكل أنجيلو ، وبعد أن هاجر جيوليو رومانو إلى مانتوا هو سباستيانو لوتشيانو Sebssiano Luciano الذي لقب دل بيومبو حين عين أميناً لأختام البابا ومصمماً لها ( ١٥٣١ ) . وكان مولده في البندقية ( حوالي عام ١٤٨٥ ) ، وكان من حسن حظّه أن تتلمذ على جيان بليني ، وچيورچيو ، وتشيا . وكانت من أوائل صوره وأجملها صورة أعمار الإنسان الثلاثة . وقد صور فيها شاباً أنيقاً بين مؤلفين شهيرين كانا وقتئذ في البندقية : يعقوب أبرنخت Jacob Obrecht وفلبي فيرديلوت Philippi Veredlot . ورسم لكنيسة سان جيوفاني كرسطومو San Giovanni Cristomo - أو أكمل لجيورچيوني - صورة .

حية واضحة المعالم لذلك القديس وهو منمك في التأليف ؛ ثم هذا في الوقت نفسه ( ١٥١٠ ) حذو طريقة جيورجيو الشهوانية في صورة فينوس وأندريس التي تبدو نساؤها الكريمت كأنهن من عصر ذهبي وجد قبل أن تولد الخطيئة . وربما . كان سبستيانو قد صور في البندقية أيضاً صورته الذائعة الصيت المعروفة باسم صورة سيرة والتي ظلت زمناً طويلاً تعزى إلى رفائيل وتسمى لافورنارينا La Fornarina .

وفي عام ١٥١١ دعا أجستينو تشيجي Agostino Chigi سبستيانو إلى رومة ليساعد في زخرفة قصر تشيجي الريفى . وهناك قابل الفنان الشاب رفائيل ، وظل وقتاً ما يتلمذ طوازه في الزخارف الوثنية ؛ ويعلم رفائيل في نظير هذا سر الألوان الرفيعة (\*) الذى اختصت به البندقية . وما لبث سبستيانو أن أصبح صديقاً حميماً لميكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين تلوين البندقية وتصميم طراز ميكل أنجيلو وأعلن عن عزمه الجمع بين غرضه حين طلب إليه الكردنال جيوليو ده ميديتشى أن يرسم له صورة . واختار سبستيانو موضوعاً لتلك الصورة بعث العازر ينافس بها عن عمد صورة العجلى التي كان رفائيل يرسمها في ذلك الوقت ( ١٥١٨ ) . ولم يجمع النقاد على معارضة حكمه هو بأنه كان فيها نداءً لمحبوب ليو (\*\*).

وكان في مقدوره أن يرقى إلى أكثر مما وصل إليه لو لم يقتنع اقتناعاً عاجلاً بالحد الذى بلغه من الإتقان . غير أن رغبته الشديدة في التمتع بالفراغ قد حالت بينه وبين النبوغ . ذلك أنه كان شخصاً مزحاً لا يستطيع أن

---

( \* ) الألوان اللطيفة هي التي تشعر الناظر إليها بالدفء ، وأهمها اللون القريب من الأحمر أو الأصفر ، وعكسها الألوان التي تشعر الإنسان بالبرودة ومنها اللون القريب من الأخضر أو الأزرق . ( المترجم ) .

( \*\* ) رفائيل نفسه . ( المترجم )

يفهم لم ينهك الإنسان نفسه لينال فوق حاجته من الذهب والشهرة الخادعة الزائلة بعد الموت . ولهذا قصر معظم عمله بعد أن قال في الفاتيكان من نصيره الذى أصبح بابا وظيفه مرغدة لا يقوم فيها بعمل كبير - قصر بعدئذ معظم عمله على رسم الصور التى قلما فاقه فيها غيره من المصورين .

ويختلف عنه بلدا سارى پروتسى Baldassari Peruzzi . فقد كان شخصاً طموحاً وددت الأجيال اسمه الطنان الرنان وراء جبال الألب الإيطالية . وكان ابن نساج ( والفنانون فى أغلب الأحيان من أصل وضع : لأن الطبقات الوسطى يجرى أفرادها أولاً وراء المنافع المادية ، يرجون أن يجدوا الفراغ الذى يمكنهم من الاستمتاع بالجمال إذا ما بلغوا سن الشيخوخة ؛ أما أبناء الطبقة العليا ، فهم وإن كانوا يغنون الفن ويناصرونه ، يؤثرون فى الحياة على حياة الفن . وكان مسقط رأسه فى سينا ( ١٤٨١ ) وأخذ فن الرسم عن سدوما وپنتو وتشيو ثم عجل بالذهاب إلى رومة ؛ ويلوح أنه هو الذى رسم الصور التى فى سقف حجرة إليودورو فى الفاتيكان ، التى رأها رفائيل من الحسن بحيث ترك معظمها دون أن يدخل عليه شيئاً من التغيير . وفى هذه الأثناء وقع فى حب الآثار القديمة ، كما وقع فى حبها برامنتى ، وأخذ يقيس أرض الطبقات السفلى من الهياكل والقصور القديمة ، ويدرس أشكال الأعمدة وتيجانها ونظام وضعها ، حتى صار خبيراً إحصائياً فى تطبيق فن المنظور على العمارة .

ولما اعتزم أجوستينو تشيجى أن يشيد قصر تشيجى الريفى دعا پروتسى لتصميمه ( ١٥٠٨ ) ؛ وسر الرجل المصرى من التصميم - سر مما توجهت به الواجهة التى على طراز النهضة من قوالب وشرفات ؛ ولما وجد أن پروتسى لا يستطيع التصوير بالألوان ، ترك للفنان الشاب الحرية فى زخرفة عدد من الحجرات فى داخل القصر بالاشتراك مع سباستيانو دل پيومبو ورفائيل . ورسم بلداسارى فى الردهة التى فى مدخل القصر ، وفى الشرفة

اللكشوفة صورة فينوس تمشط شعرها ؛ وليدا وبجمعتها ، وأوروبا *Europa* ،  
بوثورها ؛ ودانتى وشاشه الذهبى ، وجنيمدى ونسره ، وغيرها من المناظر  
التي تهدف إلى رفع روح ذلك المالى من عمل يومه الرتيب إلى شعر أحلامه ،  
وأحاط بيروتسى مظلساته بخطوط تحددها وراعى حيل فن المنظور مراعاة  
لم يسع تيشيان معها إلا أن يظن أنها نحت حقيقى بارز فى الحجر (٥٥) . وفى  
ردهة الطابق الأعلى رسم بلداسارى مبانى خادعة بالفرشاة : شرفات  
مرفوعة على صور عمد ، وأطنافاً مستندة على صور عمد مربعة ، وأشباه  
مفوافذ مطلة على صور حقول . وجملة القول أن بيروتسى قد عشق فن العمارة ،  
واتخذ التصوير خادماً له ، يطيع جميع قواعد البناء ، ولكنه يخلو من  
روحه . غير أننا نستثنى من هذا التعميم المناظر المأخوذة من الكتاب المقدس  
والتي رسمها فى شبه قبة لسانتا ماريا دلا باتشى *Santa Maria della Pace*  
( ١٥١٧ ) ، التي صور فيها رفائيل سيبيلات قبل ذلك بثلاث سنين . ولم  
تكن صور بلداسارى تقل عن صور رفائيل روعة ، لأن هذه كانت  
أحسن ما صور بلداسارى ، أما صور رفائيل فلم تكن خير صوره .  
وما من شك فى أن ليو العاشر قد تأثر بما شاهده من تعدد كفايات  
بيروتسى ، لأنه عينه خلفاً لرفائيل كبيراً لمهندسيه فى كنيسة القديس بطرس  
( ١٥٢٠ ) ، ثم عهد إليه أن يرسم مناظر مسلاة لـ *La Calandra*  
لبينا ( ١٥٢١ ) . غير أن كل ما بقى من أعمال بيروتسى فى سان بيترو هو  
رسم قاعدة البناء ، التي وصفها سيمندس *Symonds* بأنها « تفوق فى الجمال  
والطرافة ما رسم من مثلها لكنيسة القديس بطرس » (٥٦) . وكان موت  
ليو ، وجلوس بابا يبغض الفن على كرمى البابوية ، سبباً فى عودة بيروتسى  
إلى سينا ، ومنها إلى بولونيا . وفى هذه المدينة الثانية صمم قصر أبرجاني  
*Aebergath* الجميل ، وعمل نموذجاً لواجهة كنيسة سان بيترونيو التي لم تتم  
أيداً . لكنه عجل بالعودة إلى رومة حين أعاد كلمنت السابع فتح جنة  
( ١٤ - ج ٤ - مجلد ٥ )

الفنون ، وواصل عمله في كنيسة القديس بطرس ؛ وكان لا يزال فيها حين نهبت غوغاء الإمبراطور مدينة رومة . وقاسى محناً شديدة لأنه « كان وقوراً نبيلاً في مظهره ، حتى ظنه الغوغاء كبيراً من رجال الدين متخفياً » كما يقول قاسارى . واحتفظوا به حتى يفتدى بالمال الكثير ، فلما برهن على أصله الوضيع برسم صورة ملونة رائعة ، قنعوا بالاستيلاء على كل ما يملكه عدا القميص الذى على ظهره ، وأطلقوا سراحه . واتخذ سبيله إلى سينا فوصل إليها لا يكاد يستر جسمه شيء . وسر حكومة سينا أن تستحوذ من جديد على ابنها الفاره المتلاف ، فعهدت إليه بتصميم حصونها ، كما عهدت إليه كنيسة فنيتهجستا رسم صور جدارية أجمع النقاد على أنها أروع آياته الفنية — وكانت هذه الصورة الجدارية سبيلة تعلن إلى أغسطس المرتاع نبأ مولد المسيح المرتقب .

ولكن أعظم ما نبخ فيه بيروتسى هو تصميم قصر مسمى دلى كولى Palazzo Massimi delle Colonne الذى وضعه بعد عودته إلى رومة (١٥٣٠) . وكان آل مسمى يدعون الانتساب إلى فابوس مكسيموس ويقولون إن اسمهم مشتق من اسمه . وفابوس هذا هو الذى خلد اسمه بالتعطل وتضيق الوقت (\*) . أما لقبه فمشتق من المدخل ذى العمدة Columned لمسكنهم السابق الذى ضرب أثناء نهب رومة . وكان من حسن حظ بيروتسى أن استدارة مكان القصر وعدم انتظامه حالا بينه وبين اتخاذ الشكل المستطيل الكثيب ؛ ولهذا اختار له الشكل البيضى ، كما اختار له واجهة على طراز مباني النهضة ومدخلا على الطراز الدورى ، وكان البناء بسيطاً من

---

(\*) إن فى وصفه بالتعطل وإضاعة الوقت بعض المغالاة لأن ما فعله هذا القائد هو أنه لم يلتحم مع هنيبال فى واقعة فاصلة حين هجم هذا على إيطاليا ؛ بل تركه يضعف على مهل ويفقد مؤنه ثم ينقض هو على من يتخلف وزاه من جنوده ، وكانت خطته هى التى أنقذت إيطاليا من القائد القرطاجى . ( المترجم )

الخارج ، ولكنه أفاء على داخله من الزخرف والروعة ما جعله يضارع القصور الرومانية أيام الإمبراطورية مضافاً إليها ما يتسم به الفن اليوناني من رقة في التناسب والزخرف .

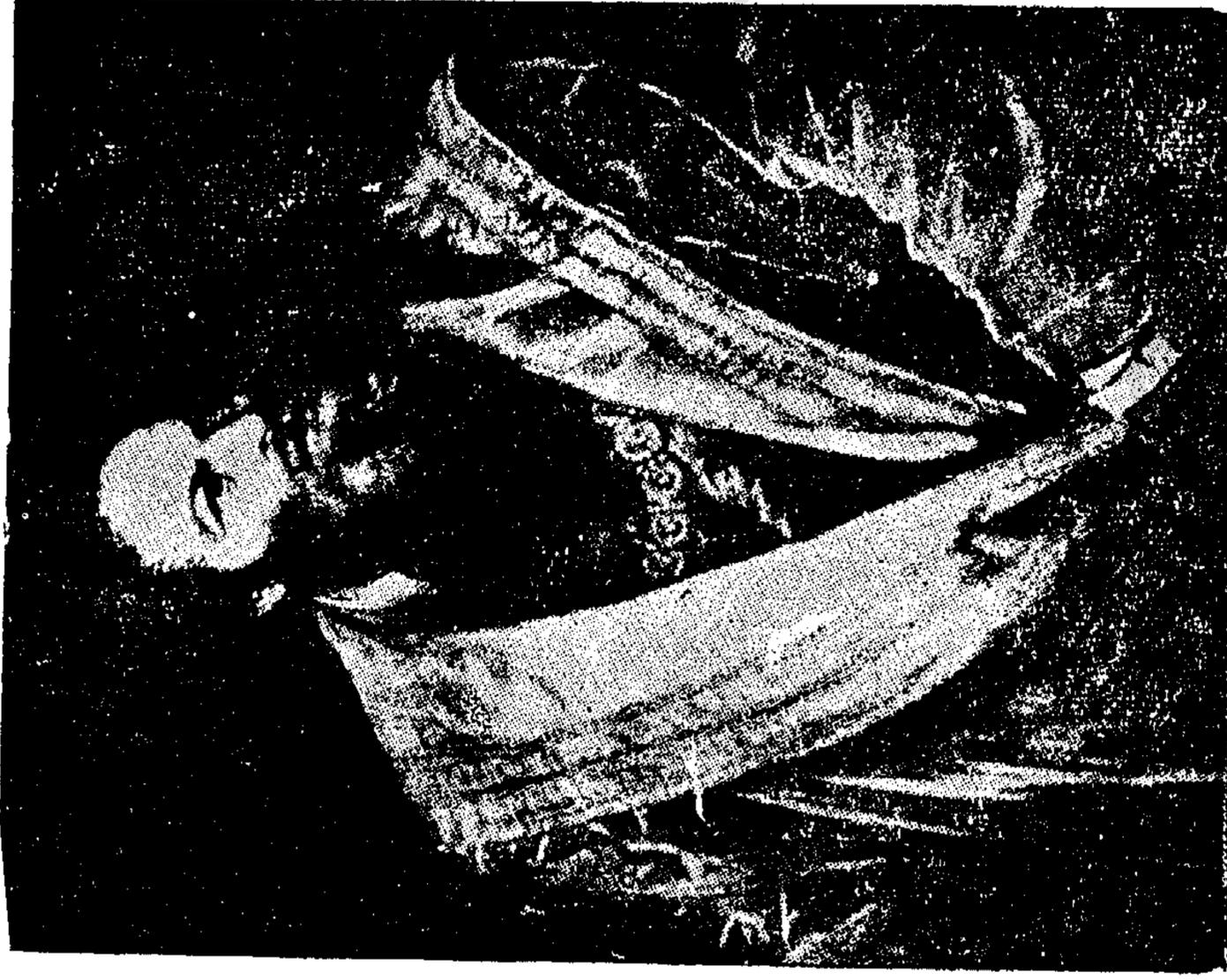
ومات بيروتسى فقيراً رغم ما كان له من كفايات متعددة ، لأنه لم تطاوعه نفسه على مساومة البابوات ، والكرادلة ، ورجال المال على أجور تتناسب مع حذقه . ولما سمع البابا بولس الثالث أنه يحتضر ، ظن أنه لم يبق من الفنانين الذين يستطيعون رفع كنيسة القديس بطرس من جدران إلى قبة إلا بيروتسى وميكل أنجيلو . ولهذا بعث إلى الفنان بمائة كرون ( ١٢٥٠ دولاراً ؟ ) . فشكر له بلداسارى عمله ، ولكنه مات رغم ذلك في سن الرابعة والخمسين ( ١٥٣٥ ) . ويقول فاسارى بعد أن يلمح بأن منافساً له قد سمى إن « المصورين ، والمثالين ، والمهندسين المعماريين في رومة شيعوا جنازته إلى قبره » .

## الفصل العاشر

ميكل أنجيلو وكلمنت السابع : ١٥٢٠ - ١٥٣٤

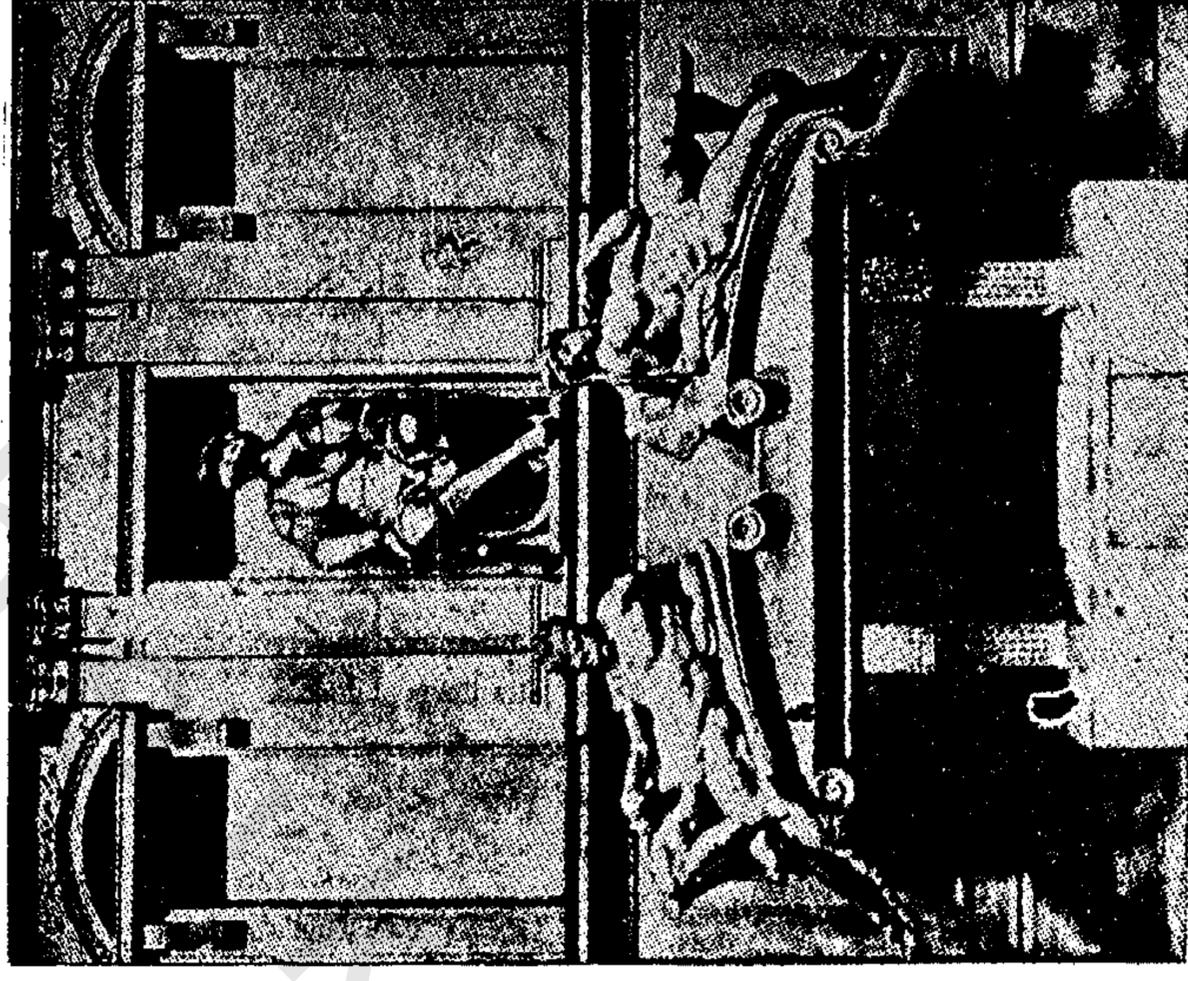
كما يذكر في صحيفة الحسنات لكلمنت أنه ظل طوال أيام كوارثه يتحمل صابراً جميع نزوات ميكل أنجيلو وثوراته ، ويعهد إليه بالمهمة تلو المهمة ، ويمنحه من المزايا كل ما يليق بالعباقرة . ويقول في هذا : « إذا جاء بونارتي أمسكت بيدي على الدوام مقعداً وأمرته بالجلوس ، لأنني لا أشك في أنه سيجلس من تلقاء نفسه دون أن يستأذني » (٥٧) . وحتى قبل أن يصبح بابا تقدم باقتراح تبين أنه أكبر عمل من أعمال النحت عهد به إلى ذلك الفنان ، وهو أن يضيف إلى كنيسة سان لورندسو بفلورنس « غرفة مقدسات جديدة » لتكون قبراً لأشهر أفراد آل ميديتشي ؛ وتصميم مقابر لهم ، وتزيينها بما يليق بها من الصور . وكان كلمنت واثقاً كل الثقة من كفايات هذا الفنان الجبار المتعددة ، ولهذا طلب إليه أن يضع عدداً من التصميمات الهندسية للمكتبة اللورنتية ، تبلغ من السعة والمتانة ما تستطيع أن تقي كل المجموعات الأدبية للأسرة الميديتشيية . وتم إنشاء السلم الفخم والدهليز ذي العمدة في هذه المكتبة اللورنتية ( ١٥٢٦ - ١٥٢٧ ) ، بإشراف أنجيلو ، أما بقية البناء فقد أقامها فيما بعد فاساري وغيره على أساس رسوم بونارتي .

أما بناء نوفا سجرستيا Nuova Sagristia فلا يمكن أن يعد من روائع الفن المعماري . فقد وضع تصميمها على أن تكون مربوعة الجوانب تقسمها عمدة مربوعة وتعلوها قبة متواضعة ؛ وكان الغرض الأول من بنائها أن توضع التماثيل . الحجرات المتروكة في الجدران . وقد تم بناء « معبد آل ميديتشي » هذا في عام ١٥٢٤ ؛ وفي عام ١٥٢٥ بدأ أنجيلو العمل



(الصورة رقم ٣) أريتينو - من عمل تيشيان

بمعرض فريك بنيويورك . انظر ص ٢٤٠



(الصورة رقم ٢) مدين اورندسو ده ميديتي - من عمل

هيكل أنجياو - غرفة المقدسات الجديدة : بان لورندسو بفلورنس

oboeikanda.com

في القبور ، وقد كتب إليه كلمنت في هذا العام الثاني خطاباً يستحثه في رفق يقول :

« إنك تعرف أن البابوات قصار الأجل ، ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى أن نرى المعبد وفيه قبور أقاربنا ، أو أن نسمع في القليل أنه قد تم ، ولا يقل عن هذا شوقنا إلى إتمام المكتبة ولهذا نعهد بهما جميعاً إلى همتك ونشاطك . وسنتذرع في هذه الأثناء (بناء على توصيتك) بالصبر الجميل ، داعين الله أن يعينك على أن تدفع المشروع كله إلى الأمام . ولا تخش قط أن سوف تعوزك الأعمال أو الجزاء ما دمنا على قيد الحياة . وداعاً على بركة الله وبركتنا - جوليو» (٥٨) .

وكان المشروع يتضمن إنشاء ستة قبور : واحد لكل من لورندسو الأعظم ، وأخيه جيوليانو الذي اغتيل ، وليو العاشر ، وكلمنت السابع ، وجوليانو الأصغر الذي كان « أطيب من أن يستطيع حكم دولة » (والتوفى عام ١٥١٦) ، ولورندسو الأصغر دوق أرينو ( التوفى عام ١٥١٩ ) : ولم يتم من هذه إلا قبر الأخيرين ، ولكنهما مع ذلك أرقى ما وصل إليه فن النحت في عهد النهضة ، كما أن معبد سستيني هو ذروة ما وصل إليه التصوير في ذلك العهد . ويظهر القبران شكل من يحتويان من الموتى كما كانا في عنفوان الشباب ، ولم يحاول المثال إظهار شكلهما الصحيح أو ملاحظتهما الحقيقية : فقد أظهر جيوليانو في ثياب قائد روماني ، ولورندسو في صورة الرجل المفكر il Penseroso . ولما أن لاحظ ملاحظ غير حذر هذا البعد عن الواقعية ، رد عليه ميكل أنجيلو بالفاظ كشفت عن ثقته السامية الأكيدة بخلوده الفني فقال : « منذ الذي يعني بعد ألفي عام هل هذه ملاحظتهم وليست هي ؟ » (٥٩) . ويتكئ على تابوت جيوليانو شخصان عاريان : عن اليمين رجل يفترض فيه أنه يرمز إلى النهار ، وعن اليسار امرأة يفترض أنها ترمز إلى الليل . ومثلهما صورثا شخصين متكئين على قبر لورندسو

أطلق عليهما اسما الشفق والفجر . وهذه التسميات مجرد فروض ولعل للخيال فيها أكبر نصيب . وأغلب الظن أن هدف المثال هو أن ينحت مرة أخرى معبوده الخفي ، أعني الجسم البشري ، بكل ما فيه من روعة قوة الرجولة ، والمحيط الخارجي الجميل لجسم المرأة بأكمله . ولقد كان نجاحه في تصوير جسم الرجل أعظم من نجاحه في تصوير جسم المرأة كما هي العادة ، وإن صورة الشفق الناقصة التي تسام اليوم النشط المضي إلى الليل على مهل ، لتضارع أنبل صور الآلهة في البانثيون .

وقامت الحرب فعطلت أعمال الفن إلى حين . ولما سقطت رومة في أيدي الجيوش الإمبراطورية ( ١٥٢٧ ) ، لم يعد في وسع كلمنت أن يناصر الفنون ، وانقطع معاش ميكل أنجيلو الذي كان يتقاضاه من البابا ومقداره خمسون كروناً ( ٦٢٥ دولاراً ) في الشهر واستمتعت فلورنس في هذه الأيام بعامين من الحرية في ظل الحكم الجمهوري . ولما أن تصالح كلمنت مع شارل ، وأرسل جيش ألماني - أسباني للقضاء على الجمهورية وإعادة آل ميديتشي إلى الحكم ، عينت فلورنس أنجيلو ( ٦ إبريل سنة ١٥٢٩ ) عضواً في لجنة العشرة للدفاع عن المدينة ، وبذلك أصبح فنان الميديتشيين بحكم الظروف مهندساً يعمل ضد الميديتشيين ، وشرع يشتغل كالمحموم في تخطيط الحصون والأسوار وتشييدها .

وبينا كانت هذه الأعمال قائمة على قدم وساق كان ميكل أنجيلو يزداد كل يوم اقتناعاً بأن المدينة لا يمكن الدفاع عنها دفاعاً ناجحاً . وهل تستطيع مدينة بمفردها منقسمة على نفسها في روحها وفي ولائها ، أن تقاوم مدفعية الإمبراطورية والحرمان الديني البابوي مجتمعين ؟ ومن أجل هذا حدث في الحادي والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، أثناء حالة عارضة من الذعر ، أن فر الفنان من المدينة ، وهو يأمل أن يهرب منها إلى فرنسا ويلجأ إلى مليكها الظريف الوديع . ولما وجد طريقه مسدوداً بأرض يحتلها الألمان

لجأ مؤقتاً إلى فيراراً وكانت يؤمئذ تابعة للبندقية ، ومنها بعث برسالة إلى صديقه باتستا دلا پلا Battista della Palla العامل الفنان لفرانسس في فلورنس يسأله : هل ينضم إليه في الحرب إلى فرنسا (٦٠) ؟ ورفض باتستا أن يتخلى عن المنصب الذى عهد إليه في الدفاع عن المدينة ، وكتب إلى أنجيلو بدلا من ذلك يدعو دعوة حارة إلى العودة لواجبه ، وينذره إذا لم يعد بأن الحكومة ستصادر أملاكه ، وتترك أقاربه المعدمين في فقر مدمر . وبذلك عاد الفنان إلى عمله في حصون فلورنس حوالى اليوم العشرين من نوفمبر .

ويقول فاسارى إنه حتى في هذه الشهور المضطربة وجد متسعاً من الوقت ليواصل العمل سراً فى قبور آل ميديتشى ، ويرسم لألفنسو دوق فيراراً صورة لا تعتبر قط عن طبائعه وهى صورة ليذا والبجع ، وكانت فى الحق صورة عجيبة يرسمها رجل قليل الميول الجنسية ، متمزمت إلى حد كبير . ولعلها كانت ثمرة اختلال/مؤقت فى عقله . ويظهر فيها البجع يضاجع ليذا ، ويلوح أن ألفنسو لم يكن هو الذى اختار موضوعها وإن كان معروفاً بأنه كان رجلاً شهوانياً فى الفترات التى بين الحروب . وأظهر الرسول الذى بعثه لإحضار الصورة الموعودة شدة امتعاضه منها حين رآها ، ولم يزد على أن قال « إن هذا عبث » ولم يحاول أخذها للدوق ، فما كان من أنجيلو إلا أن أعطى الصورة لخادمه أنطونيو مينى Antonio Mene الذى حملها إلى فرنسا حيث انتقلت إلى مجموعة فرانسس الأول النهم الذى لم يكن يفرق بين الطبيب منها والحديث . وبقيت تلك الصورة فى فنتينبلو إلى زمن لويس الثالث عشر حين أمر أحد كبار الموظفين بإتلافها لقبح موضوعها . ولسنا نعرف هل نفذ هذا الأمر أو لم ينفذ . وما هو تاريخ الصورة الأصلية بعد ذلك الوقت ، ولكننا نعرف أن نسخة منها باقية فى سراديب المعرض الأهلئ بلندن (٦١) .

ولما أن سقطت فلورنس فى أيدي الميديتشىين العائدين إليها أعدم

ياتستا دلا بالا وغيره من الزعماء الجمهوريين ، وأخفى ميكل أنجيلو نفسه مدة شهرين في بيت صديق له ، كان في كل لحظة منهما يتوقع أن يلقى نفس المصير ، ولكن كلمنت كان يظن أنه وهو حي أعظم قيمة منه وهو ميت ، فكتب البابا إلى أقاربه الحاكمين في فلورنس يأمرهم بالبحث عن الفنان ، ومعاملته بالحسنى ، وبأن يعرضوا عليه معاشه السابق إذا ما عاد إلى العمل في القبور. ووافق ميكل على هذا العرض ؛ ولكن الصورة التي كانت في عقل الخبر والفنان كانت أكبر مما تستطيع اليد تنفيذه ، كما حدث في قبر يوليوس ؛ ولم تطل حياة البابا حتى يشهد تمام المشروع . فلما توفي كلمنت في عام ١٥٣٤ نحسب ميكل أنجيلو أن يصيبه ألسندرو ده ميديتشي بأذى بعد أن مات حاميه ونصيره ، فاغتم أول فرصة للهرب إلى رومة .

وتبدو على القبور مسحة من الحزن المكتئب العميق كما تبدو على صورة **فراء ده ميديتشي** التي نحتها أنجيلو لحجرة الخلفات المقدسة . ولقد افترض المؤرخون المولعون بالديمقراطية ( والمغالون فيما كانت عليه من مدى في فلورنس ) أن الصور المضطجعة ترمز إلى مدينة تندب استسلامها للاستبداد والظلم على الرغم منها . ولكن أكبر الظن أن هذا التفسير وهم خيال : فقد صممت هذه الصور بينا كان الميديتشيون يحكمون فلورنس حكماً صالحاً إلى حد معقول ؛ وقد نحتت لبابا من آل ميديتشي كان على الدوام رءوفاً بميكل أنجيلو ، ونحتها فنان مدين لآل ميديتشي منذ شبابه . ولسنا نعرف أنه كان يبغى الإساءة إلى الأسرة التي كان يعد لها قبورها ، وليس في تصويره لجيوليانو ولورندسو ما يدل على تحقيره إياهما . والحق أن هذه الرسوم تعبر عن شيء أعمق من حب لأن تستمتع الأقلية الثرية بحرية حكم الطبقات الفقيرة ، دون أن تقف في سبيلها أسرة ميديتشي التي كانت في العادة محبوبة من الشعب عامة . إنها تعبر عن ملل ميكل أنجيلو من الحياة ، وعن التعب الذي حل برجل كله أعصاب وأحلام هائلة لا يستطيع تحقيقها .

وجد نفسه يصطدم بمئات الحزن ، ويعوق كل مشروع من مشروعاته تقريباً  
صلابة المادة التي يعمل بها وإباؤها عليه ، وكلال قوته وضيق وقته . ولم يكن  
أنجيلو قد استمتع إلا بالقليل من مباحج الحياة ، ولم يكن له أصدقاء لهم  
ما له من عقلية ، أما النساء فكان في رأيه أجساماً ناعمة تهدد السلام ، وحتى  
أعظم انحصاراته كانت نتيجة الكد المهك والألم ، واثلاف التفكير الحزن  
والهزيمة التي لا مفر منها .

ولما سقطت فلورنس في أيدي أسوأ المستبدين بها ، وساد الرعب حيث  
كان لورندسو بحكم حكماً موقفاً سعيداً ، أحس الفنان ، الذي كان قد نحت  
في رخام أضرحة آل ميديتشي نقداً للحياة لا مجرد نظرية في الحكم ، أن هذه  
الأشكال المكتتبة الحزينة تعبر ، فيما تعبر عنه ، عن المجد الغابر للمدينة التي كانت  
مهد النهضة . ولما رفع الستار عن تمثال الليل كتب الشاعر جيان باتستا  
استروتسي رباعية تعرض موضوعه عرضاً أدبياً قال فيها ما معناه :

أن الليلة التي تراها هنا واقفة في رشاقة

يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، قد صاغها مملك

من الحجر الصلد ، وسنانة ، تسرى فيها الحياة ،

فأيقظها أيها المخلوق الذي لا تصدق ، فإنها ستحدث إليك .

وقد غفر ميكل للكاتب ما في العبارة من تورية (\*) هي في الوقت عينه

تمجيد له ، ولكنه لم يرض عن تفسير الكاتب لخصائص التمثال ، وكتب

هو تفسيراً لها في أربعة أسطر هي أكثر ما في شعره وضوحاً وإبانة عن

مقصده قال :-

ما أحبب نومي ، ولكن يزيده محبة أن يكون مجرد حجر

ما دام الخراب والقدر سائدين .

إن أشد ما يؤلمني ألا أرى شيئاً وألا أشعر بشيء ،

إذن فلا توقظني ، وتحدث في همس (٦٢)

(\*) يقصد بالتورية عجز اسم ميكل أنجيلو وكلمة Angel أي ملك .

## الفصل الحادى عشر

خاتمة عصر : ١٥٢٨ - ١٥٣٤

لم يمت كلمنت إلا بعد أن بدل سياسته مرة أخرى ، وبعد أن نتوج  
بما أصابه من كوارث بخروج إنجلترا من قبضة الكنيسة ( ١٥٣١ ) . ذلك  
أن انتشار ثورة لوثر فى ألمانيا قد خلق لشارل الخامس متاعب وأخطاراً ،  
كان يرجو أن تخف وطأتها بعقد مجلس عام . وألح على البابا بعقد هذا  
المجلس ، وأغضبه ما كان ينتحله البابا المرة بعد المرة من أعذار وتسويق :  
كذلك ساء كلمنت أن الإمبراطور قد منح فيرارا مدينتى رچيو ومودينا ، فولى  
وجهه مرة أخرى شطر فرانسس ، وقبل عرضاً تقدم به فرانسس وهو أن  
تزوج كترينا ده ميديتشى من هنرى ثانى أبناء الملك ، ووقع مع الملك  
مواد سرية ارتبط فيها بمساعدة فرانسس على استعادة ميلان وجنوى  
( ١٥٣١ ) ( ٦٣ ) ؛ وعرض شارل مرة أخرى فى مؤتمر ثان عقد فى بولونيا  
( ١٥٣٢ ) بين البابا والإمبراطور أن يجتمع مجلس عام يلتقى فيه الكاثوليك  
والبروتستنت لعلهم يجدون صيغة يوفقون بها بين المذهبين . ورفض هذا  
الأقترح أيضاً ، ثم عرض أن تزوج كترين من فرانتشيسكو ماريا اسفوردسا  
نائب الإمبراطور فى ميلان ، لكنه تبين أن اقتراحه هذا جاء بعد فوات  
الوقت ؛ فقد كانت كترين قد بيعت من قبل لغيره . وفى الثانى عشر من  
أكتوبر سنة ١٥٣٣ التقى كلمنت بفرانسس فى مرسيلىا ، وزوج ابنة أخيه  
من هنرى دوق أورليان . وكان من أكبر العيوب التى يتصف بها آل  
ميديتشى بوصفهم بابوات أنهم كانوا يرون أنفسهم أسرة مالكة ، وأنهم  
كانوا فى بعض الأحيان يضعون مجد أسرتهم فوق مصير إيطاليا أو الكنيسة .

وحاول كلمنت أن يقنع شارل بأن يصطلح مع فرانسس ؛ ولكن فرانسس رفض أن يجيبه إلى ما طلب ، وبلغ من الصفات أن طلب إلى البابا أن يوافق على عقد حلف مؤقت بين فرنسا ، والبروتستنت ، والترك ، ضد الإمبراطور (٦٤) . ولكن كلمنت ظن أن هذه خطوة جريئة لا يستطيع أن يخطوها .

« وفي هذه الظروف » ، كما يقول باستور Pastor ، « لا يسع الإنسان إلا أن يقول إن من حسن حظ الكنيسة أن كانت منية البابا قريبة » (٦٥) ، فقد بلغ الرجل أرذل العمر ؛ لقد كان هنري الثامن ، وقت تتويج البابا ، لا يزال حامى حمى الدين الصحيح ضد لوثر ؛ ولم تكن الثورة البروتستنتية قد اقترحت حتى ذلك الوقت تغييراً أساسياً في العقائد ، بل كان كل ما طلبته هو إصلاحات في شؤون الكنيسة شرعها مجلس ترنت Trent نفسه لها في الجيل التالي ؛ تلك هي الحال وقت تتويجه ، أما عند وفاته (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٣٤) ، فقد كانت إنجلترا ، والدنمرك ، والسويد ، ونصف ألمانيا ، وجزء من سويسرا ، كانت هذه كلها قد انفصلت انفصالاً تاماً عن الكنيسة ، وكانت إيطاليا قد خضعت لسلطان أسبانيا خضوعاً شديداً انخطر على التفكير الحر والحياة الحرة اللذين تمتاز بهما النهضة خيراً كانا أو شراً . وما من شك في أن عهده كان شرّاً للعهد كلها في تاريخ الكنيسة . لقد ابتهج كل إنسان حين جلس كلمنت على كرسي البابوية ، كما ابتهج كل إنسان عند موته ، وكم من مرة دنس غوغاء رومة قبره (٦٦) .